ريتشارد فورد

عاشق النساء

رواية

ترجمة

كامل يوسف حسين

مكتبة بغداد

دار الآداب

ريتشارد فورد

عاشق النساء

رواية

ترجمة: كامل يوسف حسين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٩٦

مقدمة المترجم

يستمدّ هذا الكتاب أهميته من ثلاثة أبعاد، لكل منها دلالاتها المتعدّدة، التي تتضافر فيما بينها لتجعل من صدور هذا المجلّد الصغير حدثاً كبيراً، جديراً بالوقوف عنده، وتأمُّل معانيه وما يترتّب عليه.

فهو أوّلاً الكتاب الثاني في المكتبة العربية، بعد رواية «حياة وحشية» لريتشارد فورد أيضاً الذي يتولّى تعريف القارئ العربي بتيّار الواقعية القذرة في الأدب الأميركي. وهو ثانياً يشكّل نقطة انعطاف لها ما بعدها في تطوّر هذا التيّار، وهو ثالثاً يمثّل تحوّلاً كبيراً في إبداع ريتشارد فورد نفسه، بحيث أنّه سيتوقّف بعده طويلاً، وكأنّه يتلمّس معالم الطريق الذي سيمضي عليه بعد كتابه الفريد الماثل بين أيدينا.

فلنبدأ، إذن، بمتابعة كل بعد من هذه الأبعاد الثلاثة، على أمل أن تتيح لنا في مجملها المدخل الصحيح لا لقراءة أدب ريتشارد فورد وحده، وإنّما للرحيل عبر إبداع تيّار الواقعية القذرة بكامله، في جهده الهائل لرصد نبض الحياة الأميركية، وتلمُّس ملامحها، وفهم قلب الأشياء من داخلها، عند المنعطف الأخير للقرن العشرين.

وإذا بدأنا بالبعد الأوّل، المتعلّق بالتعريف بتيّار الواقعية القذرة، فإنّني لست أشكّ في أنّ أولئك الذين لم يتح لهم الاطلاع على المقدّمة التي مهّدتُ بها لرواية «حياة وحشية» سيشعرون بالجدة والصدمة في آن واحد، ذلك أنّه باستثناء جهود كاتب هذه السطور للتعريف بتيّار الواقعية القذرة، من خلال روايتي «حياة وحشية» و«عاشق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النساء» وبعض المقالات الصادرة في عدد من المجلاّت العربية، ومنها «العربي»، و«الآداب»، و«نزوى»، و«شؤون أدبية»، بالإضافة إلى جهود بعض الأخوة الزملاء، الذين صدرت محاولاتهم للتعريف بهذا التيار في «الحياة» اللندنية بصفة خاصة – أقول إنّه، باستثناء هذا، لا يكاد يكون هناك تعريف حقيقي بهذا التيّار، دع جانباً تحليل أعماله، وتقديم نماذج من عطاء مبدعيه.

ومازلت أذكر المرّات العديدة التي استوقفني فيها الكثيرون من المعنيين بالأدب والنقد العالميين، مستعيدين اصطلاح الواقعية القذرة، رغم أنّ هذا التيّار يعبر، من ناحية، عن جهد عدد كبير من الكتّاب والمبدعين الأميركيين، الذين يتميّزون بالغضب وبالرغبة في التعبير عن الحياة اليومية والناس المهمشين في المجتمع؛ ومن ناحية أخرى، فإنّ هذا التيّار ليس بالظاهرة الحديثة، ولا العابرة، فعمره الآن يبلغ عقداً ونصف العقد من الزمن. ولكن المشكلة الحقيقية أن التأصيل النقدي المعمّق لإبداع هذا التيّار مازال بعيداً عن التكامل.

وربما لم يكن عجيباً أن بيل بوفورد، رئيس التحرير السابق لمجلة «جرانتا»، الذي صاغ هذه الاصطلاح في العدد الشهير من مجلته الصادر في العام ١٩٨٣، والذي حمل العنوان العام «الواقعية القذرة: كتابات جديدة من أمريكا»، قد قام بتعريف القارئ بالاصطلاح وبالتيار وبالكتّاب جميعاً في أقلّ من صفحتين. وعندما عاد في عدد المجلة الصادر في العام ١٩٨٦، بالعنوان العام «مزيد من القذارة: فنّ القصّ الأمريكي الجديد»، قدم النصوص مباشرة، دونما كلمة واحدة، في معرض التقديم أو التعقيب أو التحليل.

ما الذي يعنيه هذا؟

إنّه يعني، ببساطة، أنّ الاصطلاح تمّت صياغته، والتيّار تمّ تقديمه، عبر كلمة تعريفية موجزة، ودونما جهد نقدي حقيقي، في التأصيل وإيضاح الخصائص وتشريح الأشكال واللغة والعالم السردي الذي يقدّمه لنا كتّاب هذا التيار، بل إن بيل بوفورد، عندما يعرفنا بكتّاب هذا التيّار، يأتي على ذكرهم على سبيل الحصر، دون

أن يحدّثنا، بأيّ قدر من العمومية، عما يربط هؤلاء الكتّاب معاً، ويجعلهم صانعي تيّار أدبي، بكل ما يحمله هذا التعبير من ثقل.

وبقدر ما أعلم، فإن جهر التأصيل النقدي هذا لتيّار الواقعية القذرة لم يتم القيام به حتى الآن بشكل منهجي دقيق، على الأقلّ ليس على نحو ما تمّ القيام به في حالة اصطلاح الواقعية السحرية.

فما الذي نجد أنفسنا حياله هنا؟

الإجابة ليست لنا، وإنّما هي لبيل بوفورد نفسه، الذي لا يتردّد في القول، في افتتاحيته الشهيرة، التي أشرنا إليها:

«.. إنها واقعية قذرة غريبة، تدور حول الجانب المتعلّق بالبطن من الحياة المعاصرة، ولكنها واقعية مؤسلبة للغاية وذات طابع شديد الخصوصية، تتدفق إليها المعرفة، على نحو شديد الدأب، من المفارقة المثيرة للقلق والمراوغة أحياناً، بحيث أنها تجعل الروايات الواقعية الأكثر تقليدية التي كتبها، على سبيل المثال، أبدايك أو ستايرون تبدو منمّقة، بل وباروكية بالمقارنة معها».

أتمنى أن يغفر لي القارئ طول هذا المقتطف، ولكنّني حرصت على إيراده – حرفيّاً تقريباً – لتتضح للقارئ طبيعة المشكلة التي نواجهها هنا، فبيل بوفورد يعمد إلى تعريفنا بالواقعية القذرة، لا بتقديمها لنا واضحة، ومفهومة، ومتبلورة، وإنما من خلال التعريف بالسلب، من خلال القول إنها مفارقة ومختلفة ومباينة للواقعية الأمريكية التقليدية. ليكن. دعنا نقبل هذا على مضض. ولكن في أيّ أرض يضرب هذا الاختلاف جذوره؟

ليس لدى بوفورد الكثير مما يقدّمه، في معرض الإجابة عن هذا السؤال، لكنّنا يمكن أن نضع أيدينا على وجهين للاختلاف بين الواقعية القذرة، كتيّار مستقلّ في الأدب الأمريكي، وبين الكتابات السابقة لها في الولايات المتحدة، بل وفي بريطانيا نفسها. الوجه الأوّل هو معمار القَصّ، والوجه الثاني ليس إلا لغة القص. ولكن سنلاحظ، على الفور، أن بوفورد عندما يوضح هذين الوجهين سيعتمد، مرّة أخرى، أسلوب التعريف بالسلب.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنه يقول عن الواقعية القذرة، من حيث الوجه الأوّل: «إنّها ليست فقط مفارقة لأيّ شيء يكتب حالياً في بريطانيا، وإنّما هي بالمثل مفارقة، على نحو ملحوظ، لما يفهم عليه القَصّ الأمريكي عادة، إنّها ليست بطولية، ولا شامخة، والطموحات الملحمية عند نورمان ميللر، أو سول بيلو، تبدو، بالمقابل منتفخة، وغريبة، بل زائفة. إنّها ليست تجريبية بصورة واعية، مثل الكثير من الكتابة التي يطلق عليها أنها ما بعد الحداثة، أو ما بعد المعاصرة، أو ما بعد التفكيكية، والتي نُشرت في الستينيات والسبعينيات. وأعمال جون بارث، ووليام جاديث، وتوماس بينشون، تبدو مليئة بالادّعاء إذا قورنت بها. إنها ليست فناً للقصّ مكرّساً لصياغة الطرح التاريخي الكبير».

ليكن. إنّ هذا هو ما ليس عليه معمار القَصّ في الواقعية القذرة، بحسب ما يراه بيل بوفورد. فهل يقترب، ولو بمقدار خطوة، من التعريف بالإيجاب؟

ربما، فالموضوع الوحيد الذي يتلمّس فيه بوفورد ملامح الواقعية القذرة في ذاتها، وليس من خلال مفارقتها لغيرها، يقول فيه: «إنها فن للقص على نطاق مختلف، مكرّس للتفاصيل المحلية، العناصر العاطفة للقلب، القلاقل الصغيرة في اللّغة والإيماء. ومن المناسب تماماً أنّ الشكل الأولي لفن القص هذا يتمثّل في القصّة القصيرة، وانه على نحو ملموس تماماً جزء من حركة إحياء القصّة القصيرة الأمريكية. ولكن هذه القصص قصص غريبة، بعيدة عن التجميل، لا أثاث فيها إنّها تراجيديات تدور في أماكن رخيصة الايجار، حول أناس يشاهدون التلفزيون نهاراً، ويقرأون الروايات الرومانسية الرخيصة، ويستمعون إلى الموسيقى الريفية وموسيقى القرب، إنهن نادلات في مقاهٍ على جوانب الطرق، وموظفو تحصيل في محال السوبرماركت، وعمال بناء، وسكرتيرات، ورعاة بقر لا يجدون عملاً، يلعبون البنجو، ويلتهمون شطائر التشيزبرجر، ويصطادون الغزلان، وينزلون في فنادق رخيصة، ويشربون الكثير، ويتعرّضون للمتاعب، غالباً لسرقة سيارة، أو تهشيم واجهة عرض، أو سرقة حافظة نقود. إنّهم من كنتاكي، أو الاباما، أو اوريجون، ولكن بالأساس يمكن أن

يكونوا من أيّ مكان، إنّهم ضائعون في عالم حافل بالغذاء الذي يلحق الضرر بمن يتناوله، وبالتفاصيل القاصرة المنتمية للنزعة الاستهلاكية الحديثة».

هذه البانوراما الهائلة، التي يرسمها لنا بوفورد بضربات سريعة، كأنها ضربات فنان يحاول أن يلتقط بفرشاة مجنونة ضوءاً قاهراً، لا يفتأ يتحرك، فينتقل، ويهرب من محاولة الإمساك به، تستمدّ قيمتها من الإشارة، من الإيحاء، من ضرب الأمثلة، من الإحالة، وليس من التأصيل والتحليل والتعمُّق ومحاولة الإمساك بالجوهر، فتلك مهمّة من سوء الحظ أنها تقع على كاهلنا نحن.

ولكن ماذا عن لغة الواقعية القذرة؟

ذلك هو الوجه الآخر الذي يبذل بوفورد حداً أدنى من الجهد في محاولة تلمّسه، فهو يقول عن كتّاب هذا التيّار:

«كثيرون، مثل ريتشارد فورد، أو ريموند كارفر، أو فردريك بارثلمي، يكتبون بلغة شديدة الصراحة، لا تعكس شعوراً بالدهشة، ثم الوصول بها إلى أبسط الأساليب، فالجمل مجرّدة من الزخرفة، وتحكم سيطرتها التامة على الموضوعات والأحداث البسيطة، التي تطلب منّا أن نكون شهوداً عليها. امّا ما يبدو انّه يتحدّث اكثر من غيره، فهو ما لا يقال، ضروب الصمت، الوان الحذف، صنوف الإلغاء».

هذا التّيار، تيّار الواقعية القذرة، لا يمكن، بوضعه في مثل هذا الإطار، إلاّ أن يثير فضولنا، أن يدعونا للاقتراب منه، أن يَحْفِزنا لفك مغاليقه، ولكن من هم الذين يشكّلون صميم هذاالتيّار في الأدب الأمريكي، الذي مايزال، برغم انطلاقه منذ سنوات ليست بالقليلة، موضع جدل محتدم في الولايات المتحدة، بين تقدير لكُتّابه ورفض الدُّور الكبرى لنشر أعمالهم، باستثناء وحيد، هو ريموند كارفر، الذي رحل عن عالمنا، وربما بسبب هذا الرحيل المأساوي، وكذلك باستثناءٍ آخر أطلّ على استحياء مؤخّراً، هو ريتشارد فورد مؤلّف العمل الماثل بين يدي القارئ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشكلة الحقيقية هي أنّ بوفورد لا يحدّد لنا، بقدْر أكبر من الوضوح، ما الذي يربط هؤلاء الكتّاب، وإنّما يكتفي بإيراد قائمة حصرية لهم، وهم: ريموند كارفر، ريتشارد فورد، جين آن فيليبس، إليزابيت تالينت، فريدريك بارثلمي، بوبي آن ماسون، توبياس وولف، ماري روبيون، آن يتي، ريتشارد بيتس، جين تومسون، ستيفن ديكسون، لويز إريدريك، ريتشارد روسو، إيلين جيلكريست، روبرت أولستيد، جوي وليامز.

وربما كان من ملامح سوء الحظ، المتعلّق باصطلاح الواقعية القذرة، الذي يضمّ تحت مظلّته هؤلاء الكتّاب جميعاً، أنّ الاصطلاح نفسه يوحي بظلال أخلاقية من الواضح أنّها ليست مندرجة في جوهر تصور الاصطلاح نفسه، ولكن طريقة نحته تنثر هذه الظلال نثراً، وتبدو كما لو كانت حكماً مسبقاً على العالم الذي تدور حوله، في حين أن هذا العالم، في جوهره، هو أمريكا الأخرى، التي تحرص الدوائر الرسمية الأمريكية على ألا يراها العالم الخارجي، أمريكا الريف الوحشي، أمريكا الضواحي المجرّدة من الروح، أمريكا الطرقات المفتوحة بلا انتهاء، أمريكا الضائعين والمشرّدين والذين غاب عنهم الحلم، لأنّهم يعيشون، لا في عالم كابوسي، وإنّما في عالم يفتقر إلى أدنى مقومات الحلم.

ربّما، لهذا بالضبط، كان للعالم أن يعرف أعمال هؤلاء الكتّاب من الطبعات اللندنية، وليس من الطبعات النيويوركية، الصادرة عن دور صغيرة، وبعدد محدود من النسخ. والمؤلّف الوحيد، إلى جوار المؤلّف الماثل بين يديّ القارئ الآن، في المكتبة العربية من مؤلّفات كتّاب الواقعية القذرة، هو رواية «حياة وحشية» لريتشارد فورد، التي ترجمها كاتب هذه السطور منقولةً عن طبعة هاربر كولينز اللندنية، وليس عن طبعة أتلانتك مونثلي بريس النيويوركية، والتي لم أفلح في الحصول عليها، برغم مطاردتي لها سنوات طويلة، حيث كان الردّ على كل استفسار عنها: أنها نَفَدت، ولم يُعَدْ طبعها. والأمر عينه ينطبق على رواية «عاشق النساء»، مع بعض الاختلاف في التفاصيل.

ومن ملامح سوء الحظ اللاحق باصطلاح «الواقعية القذرة» أيضاً، أنّ من أُطلق هذا الاصطلاح على أدبهم لم يتردّدوا في محاولة التمرّد عليه والخروج من دائرته صراحة. وفي مقال يعدّ من أشهر أدبيات الواقعية القذرة لريموند كارفر بعنوان «صداقة» كتبه عن صلته بريتشارد فورد وتوبياس وولف، لا يتردّد كارفر في أن يجعل الاستهلال على النحو التالي:

«آه، يا فتى! هل يستمتع هؤلاء الأشخاص بوقتهم! إنّهم في لندن، وقد قدّموا لتوّهم قراءة لأعمالهم في قاعة امتلأت على سعتها في «ناشيونال بويترى سنتر». ومنذ بعض الوقت، عمد النقّاد وكتّاب مراجعات الكتب إلى وصفهم بالواقعيين القذرين. وكان وولف، وفورد، وكارفر لا يحملون هذا على محمل الجد. وإنّما يتبادلون النكات حوله، تماماً كما يتبادلونها حول الكثير من الأمور الأخرى، فهم لا يحسّون أنّهم جزء من مجموعة».

وما يلاحظه كارفر، من هذا المقال الشهير، بروح مرحة، ما تحمله من الدعابة أكثر مما تحمله من الجدّ، على الرغم من أنّه لا يتردّد في الفقرة الثانية من المقال نفسه في إنكار أنّه يشكّل مع صديقيه جزءاً من حركة أدبية، سوف يلتقطه أندو سيزار بمقال في صحيفة «الجاريان» ليتناوله بضربات أقرب إلى مبضع الجراح منها إلى قلم الناقد، في تناوله لأعمال توبياس وولف، حيث لا يتردّد في القول:

«من المفترض أن توبياس وولف ينتمي إلى مدرسة الواقعية القذرة في الكتابة الأمريكية الجديدة... ويبدو هذا بشكل عام تصنيفاً بعيداً عن أن يقدّم يد العون، فصوت وولف ليس إلاّ صوته الذاتي، وهو ينبعث مدوياً من تقليد أقدم عهداً من تقاليد الكتابة الأمريكية».

وهذا الابتعاد بكتابات وولف، ومحاولة ردّها إلى آفاق بعيدة عن الواقعية القذرة، محاولةٌ أقدم عهداً منها، هو بالضبط ما تحاول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القيام به جوديث تشيرنيك، في مقال مناظر لها في «الأوبزرفر» حيث لا تتردّد بدورها في القول:

«إنّ قصص توبياس وولف القصيرة تضعه في صميم تقليد أميركي قوي، يعود، في إيغاله رجوعاً من هيمنجواي وفيتزجرالد، إلى جاك لندن ومارك توين».

هذه الملاحظة نفسها ستضعنا في مواجهة سؤال على جانب كبير من الأهمية، لا بدّ لنا من التعامل معه بشكل من الأشكال، إذا أردنا أن نصل إلى حد أدنى من الدقّة في تلمّسنا لملامح الواقعية القذرة: ما هي الخلفية التاريخية التي تشكل الأرض التي انبثقت منها الواقعية القذرة، وهل يمكن لهذه الخلفية أن تساعدنا على فهم السر في أنها لم تصبح قط جزءاً من التيّار الرئيسي للكتابة الحديثة في الولايات المتّحدة؟

لقد سبق لي القيام بالتصدّي لعلامة الاستفهام هذه، مرّتين على الأقلّ، المرّة الأولى في المقدّمة التي قدّمت لها ترجمة للنصّ الكامل لـ«ثلاثية نيويورك» لبول أوستر، والمرّة الثانية في المقدّمة التي صدّرتُ بها ترجمتي للنصّ الكامل لرواية «حياة وحشية» لريتشارد فورد.

ومع ذلك فلا بأس هنا من إلقاء نظرة عَجْلى على هذا البعد، قبل أن نتصدّى للسؤال الأكثر أهميّة، والذي يدور حول المسيرة المستقبلية لتيار الواقعية القذرة.

نتمنى ألاّ نقع في هاوية التبسيط المخلّ، إذا قلنا إنّ الواقعية القذرة جاءت، تاريخياً، في أعقاب انحسار أحلام الستينيات الكبيرة، وفشل الماوية، ووصول انتفاضات الشباب إلى الصفر، وتحول حركات العصابات والمقاومة اليسارية إلى أحزاب وحيدة في الشارع وسُدّة السلطة، في الكثير من أرجاء العالم، وبالتالي فهي وريثة كلّ هذه الخيبات، ولكنّها لا تحملها كاللعنة وتمضي بها، فالكثير من كتابات الواقعية القذرة بعيد تماماً عن أن ترتمي عليه ظلال إيديولوجية بهذا الوضوح، لكن هذا الميراث يشكّل الزاد

المعرفي الذي يتمّ حمله على الطريق، في رحلة هائلة تبدأ دون أن يبدو في الأفق أنّ هناك نهاية لها. ولعلّه ليس من قبيل المصادفة أنّ جانباً ليس بالهين من أعمال الواقعية القذرة يتّخذ الطريق ساحة له.

قد يبادر معترض إلى القول بأنّ الكثيرين من كتّاب الواقعية القذرة، الذين كتبوا عن الطريق، ومنهم ريتشارد فورد، مؤلّف الكتاب الماثل بين أيدينا، برغم إدمان الكتابة عن الارتحال والطريق وشخوص عالم السيّارات والموتيلات، لم يصلوا إلى بلورة معنى روحي لهذه الرحلة الممتدة بلا انتهاء، ولم يصلوا إلى حس التمرُّد على قوانين المؤسّسة الأمريكية، ولكن ربّما كان الردّ المنطقي هنا هو أنه: خلافاً لروائيين مثل هنري ميللر، وجاك كيروواك، وغيرهما، فإنّ كتاب الواقعية القذرة يكتبون في عصر اضمحلال وانهيار الإيديولوجيا، لا كأسلوب في التغيير السياسي فحسب، وإنّما أيضاً كحلم بأبسط المعاني، ومن هنا فإنّ من الصعب - ربّما إلى حدّ الاستحالة - مدّ خطوط مباشرة بين أعمالهم وبين رؤى إيديولوجية محدّدة وواضحة ومتبلورة بشكل قاطع، كما نجد في كتابات أجيال سابقة.

لقد كان بمقدور هنري ميللر أن يكتب عن أمريكا، باعتبارها حلماً انقلب إلى كابوس كافكاوي، كابوس لم يتردّد ساخراً في وصفه بأنّه كابوس مكيّف الهواء، ولكن كتّاب الواقعية القذرة يرفضون مقولة الحلم الأمريكي الذي انقلب إلى كابوس، لأنّهم يضربون أقدامهم على نحو أكثر صلابة في أرض الواقع، ويدركون انتفاء مقوّمات الحلم في الأرض الأمريكية.

إنّ هذا، بالضبط، ما يكتب عنه كارفر في «سكوتاً من فضلكم»، و«ما الذي نتحدّث عنه حينما نتكلّم عن الحب»، و«كاتدرائية». وهو ما يتناهى إلينا من خلال قصصه المختارة، التي يضمّها مجلّد «من حيث أنادي» الذي يقع في ٤٣٠ صفحة.

ودنيا الخارجين من محرقة فيتنام، الضائعين تحت سقف حياة تفتقر إلى مبرّر الاستمرار وإنسانية التواصل، هو ما نتلمّس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ملامحه في رواية توبياس وولف القصيرة «لص الثكنة»، وروايته الطويلة «حياة هذا الفتى»، ومجلّد قصصه الذي يقع في ٤٤٨ صفحة.

وليست بعيدة عن هذه الأجواء أعمال جين آن فيليبس:

المغامرات الحقيقية للرولنج ستونز، الأحلام الآلية، البطاقات السوداء، المسارات السريعة.

أما لويز إريدريك، فهي ترتاد العالم نفسه، ولكن تحت الأفق الوحشي للحياة الأمريكية كما تتبدّى في معارك الهنود الحمر من أجل مواصلة البقاء في غمار التناقض الرهيب بين مسايرة الحياة العصرية الأمريكية والابقاء على الهوية الذاتية، وهو الموضوع الذي حاولت تشريحه على امتداد رباعيتها: عقار الحب - ملكة الشمندر - مسارات - قصر البنجو.

والقائمة طويلة وممتدة، وتكاد تبدو بلا انتهاء لكنها تتلمّس ملامح شتّى في الوجه الأميركي الواحد.

هذا يفرض علينا سؤالاً منطقياً: إلى أين تمضي حركة الواقعية القذرة؟

من المؤكّد أنّ علامة الاستفهام هذه تنقلنا إلى البعد الثاني من الأبعاد الثلاثة، التي تشكّل معمار هذه المقدّمة، وهو البعد الذي نتساءل في إطاره: بأي المعاني تشكّل رواية «عاشق النساء» نقطة انعطاف مهمّة في مسار تيّار الواقعية القذرة؟

دعنا نسلم، ابتداء، بأنّه إذا كان الحديث عن «عاشق النساء»، كنقطة انعطاف مهمّة في مسار الواقعية القذرة، هو أمراً لا تنقصه الصعوبة ولا التعقيد، فإنّ التنبّؤ بالمسيرة المستقبلية لهذا التيّار، في ضوء المعطيات الراهنة، يكاد يكون شيئاً مستحيلاً بكل المعاني. وربّما ظلّ كذلك لسنوات مقبلة.

مع ذلك فلنحاول هنا أن نطرح، للأمرين معاً، مؤشرات وملاحظات قد تُقدِّم في مجموعها مشروع إجابة مستقبلية، ربما

كان لها، ذات يوم، في مواجهة هذا الطرح الصعب، المزدوج في علامات استفهامه، أن تتكامل مع عطاء تيّار الواقعية القذرة نفسه.

١ – منذ البداية لم يندفع تيار الواقعية القذرة في صُوَر تيار متكامل، ولا حتى في صُوَر جهود تندفع من منابع واحدة، بل اندفع، كما رأينا، في شكل سلاسل متتابعة من الكتابات الغاضبة، التي تتخذ من القصّة القصيرة، في الأساس، شكلاً للإبداع، وإن لم يَحُلْ ذلك دون الامتداد إلى الرواية والشعر، والتي تعبر عن الاحتجاج على الخيبات الكبيرة وانكسار الأحلام وتآكل الايديولوجات، وسيطرة ليل طويل من اللامعنى واللاجدوى، والسقوط الإنساني في نزعة استهلاكية تستمرئ ذاتها، ولا تَعِد إلا بنفسها، وكأنّها حالة من الاستمناء المفضي إلى الموت.

٢ – في ضوء هذا، بالضبط، كان من الطبيعي لكتابات الواقعية القذرة أن تتأمّل الإنسان والمكان من حوله، والانتفاء المطلق لهوية المكان في صورة الرحيل الدائم. ومن هنا فإنّ الطريق، وقصص التشرّد والمقاهي والحانات والفنادق، على جانبي طرق تمتدّ من اللامكان إلى اللاموضع، ولا تفضي إلى شيء، أو هدف، أو مكان، أو غاية، كلّها تؤدي دوراً ليس بالهين في كلّ كتابات الواقعية القذرة.

٣ – هناك أمر لا بدّ أن يلفت نظرنا بشدّة، فهذه الأماكن والشخوص والطرق هي أميركية تماماً، ولكنها أيضاً غير مميّزة الملامح، بلا هوية، بلا طابع محدّد، كأنّها تستحضر تلك البوتقة الأميركية الهائلة، التي تمتزج فيها الألوان والأخلاط والأمزجة، وتمتزج فيها الاتجاهات والرؤى. ولكن ما الذي يخرج من هذا كلّه؟ إنّه مسخ شَائِه، عملاق، يفرض قبحه على كلّ شيء في الكون، وبصفة خاصة على كلّ ما هو جميل، ومتميّز، وحضاري، وشديد الخصوصية. ترى، هل من قبيل الصدفة أنّ شركة والت ديزني العالمية قد اختارت وادي المارن على بعد كيلومترات قليلة من باريس لتقيم فيه حديقتها المعروفة باسم «اليوروديزني»، والتي تقدّم النقيض الفج والبشع والصارخ لكلّ ما هو راق وإنساني وأصيل في الثقافية الفرنسية؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٤ – رواية «عاشق النساء» تشكّل منعطفاً مهماً في تيّار الواقعية القذرة، لأنّها العمل الإبداعي الأوّل الذي يجرؤ فيه كتّاب الواقعية القذرة على مغادرة أماكنهم الأثيرة، وشخوصهم المألوفة، وموضوعاتهم المعتادة. إنّنا هنا لسنا في أيّ مكان من أميركا، وإنّما في باريس أساساً، ولسنا في مواجهة تجليات الاغتراب الساحقة تحت الآفاق الأميركية، وإنما أمام قصة حب عجيبة التكوين، ولسنا أمام النهايات المفتوحة والا المذهلة ولا الصادمة المألوفة في الواقعية القذرة، وإنّما أمام نهاية فريدة من نوعها، تدعو إلى المزيد من التأمّل والتدبّر وإعمال الفكر. وربّما لهذا كلّه فإن كتابات هذا التيّار ستشهد، بعد هذا العمل الصغير الحجم، العظيم القيّمة، تحوّلات في الاتجاه نفسه، ونحو الحفر في أرض النبع ذاته.

٥ – خلافاً لما حاول بعض النقّاد الترويج له، فإنّه لا يمكن القول بحال إن تيّار الواقعية القذرة قد استنفد أغراضه وضرب عميقاً في أرض كلّ ينابيعه. فعلى الرغم من مرور قرابة عقد ونصف العقد من الزمن على صياغة الاصطلاح نفسه، إلاّ أنّ الحركة التي يختزلها تندفع بقوّة واقتدار. وعلى الرغم من فقدها رصيداً حقيقياً برحيل ريموند كارفر عن عالمنا في العام ١٩٨٨، متأثّراً بإصابته بسرطان الرئة، إلاّ أن دماً جديداً يتدفق في عروق الحركة، مع انضمام كتّاب شبان إلى تقاليدهما في الكتابة، ومع إضافة نجومها للمزيد من الأعمال إلى رصيدها ورصيدهم الإبداعي.

٦ – من الصعب التنبّؤ بإمكان استيعاب أعمال الواقعية القذرة فيما يعرف بالتيّار الرئيسي للأدب الأمريكي. وكما أسلفنا القول، ليس من قبيل الصدفة أن إبداعات هؤلاء الكتاب تنشر في انجلترا أو في دور نشر صغيرة في الولايات المتّحدة، وحتى في الحالات الاستثنائية بالنسبة لبعض كتاب هذا التيّار، كما في حالة ريتشارد فورد نفسه، فإنّ دور النشر الأميركية، عندما تطرح حالة من حالات الاستثناء الذي يؤكّد القاعدة، وتنشر عملاً لأحد مؤلّفي هذا التيّار، فإنها لا تستخدم اصطلاح الواقعية القذرة، ولا تشير إليه من قريب أو بعيد، في المقدّمة، أو تعريف الناشر بالكتاب، أو في الإعلانات

عنه، بل تحاول أن تتدخّل لدى المطبوعات المتخصّصة في عروض الكتب للحيلولة دون تناول العمل من هذا المنظور. ومع ذلك، فإن كتّاب هذا التيار يملكون مصدر قوّة هائلاً، يتمثّل في صلاتهم الوثيقة منذ انطلاق تيّارهم بعدد من عباقرة السينما غير التقليديين. ومن المؤكّد انّه ليس من قبيل المصادفة أنّ المخرج روبرت التمان قد استلهم روح فيلمه الذائع الصيت، «مختصرات»، من عشر قصص من أجمل أعمال كارفر، كما أقبل الجمهور على رواية وولف «حياة هذا الفتى» إلى حدّ التخاطف، بعد قيام روبرت دي نيرو بتحويلها إلى فيلم ناجح.

٧ – تتعرّض الواقعية القذرة لخطر حقيقي، وداهم، لا يمكن التقليل من شأنه بحال، هو خطر الانحصار داخل عالمها بمعناه الضيّق، والعكوف داخل هذا العالم على تقليد الذات، وهو الخطر نفسه الذي قضى على الواقعية الأميركية، ودفع كاتباً في قامة إرنست هيمنجواي إلى الانتحار. وتجاوز هذا الخطر يتوقّف على مدى قدرة كتّاب الحركة على المزيد من الحفر في ينابيع الإبداع، وربّما كان وعيُ هذا هو وحده الذي يفسّر الحرص الاستحواذي من جانب ريتشارد فورد على أن يقدم في كلّ عمل جديد عالماً جديداً ومختلفاً وافقاً مغايراً لما قدّمه في عمله السابق مباشرة.

٨ – لا يتردّد كتّاب ما يعرف بالتيار «السوريالي المستنقعي» وهو أحدث تيارات الأدب الأميركي حتى كتابة هذه السطور، وفي مقدّمتهم مارك ريتشارد، ودونالد انتريم، في القول بأنّ أعمالهم ستبلغ من التألّق حدّ وضع تيّار الواقعية القذرة في هامش الظلال المنسيّة، ولكن مثل هذا الطرح يبدو أقرب إلى التفكير بالتمنّي منه إلى خارطة لآليات الإبداع الأدبي الحقيقي والمؤثّر والفاعل.

وأيّاً ما كان الطريق الذي ستشقّه الواقعية القذرة، فإنّها تظلّ حركة جديرة بالمتابعة، وبالدراسة، وبالتأمّل. وبمحاولة الفهم، ربما لأنّها أقرب إلى نسيج الحركات الإبداعية في عالمنا الثالث مما يتصوّر الكثيرون.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن الا تنقلنا هذه النقطة، على وجه الدقّة، إلى البعد الثالث من ابعاد اهمية هذا الكتاب، وهي المتعلّقة باهمية المشوار الإبداعي لريتشارد فورد ومكانة «عاشق النساء» كمحطة متميّزة في هذا المشوار، الذي سيذهلنا قرب الكثير من مراحله مع جهود مبدعين متميّزين في عالمنا الثالث؟

هنا لا بدّ لنا من أن نبادر إلى القول بأننا سبق لنا التصدّي لجانب من المهمّة الصعبة المتمثّلة في التعريف بمشوار فورد الإبداعي، والمحطّات المتتاليه لرحلته الخلاّقة، وذلك في المقدّمة المطوّلة التي مهّدنا بها لترجمتنا لرواية «حياة وحشية» لريتشارد فورد، الصادرة عن دار الآداب، ومع ذلك فإنّ الكثير من الملامح يبقى ملتفاً بغير قليل من الغموض، الذي يتعيّن علينا أن نبدّد هنا جانباً منه على الأقل.

ولكن قبل بدء الانتقال بين محطات فورد الإبداعية، يتعيّن علينا أن نلقي نظرة على مسألة على جانب كبير من الأهميّة في فهم عالم فورد الإبداعي.

لقد سبق للناقد الأميركي جيف جايلز أن أشار إلى أنّه: «في كلّ مرّة ينتهي فورد من إنجاز كتاب جديد يتساءل: هل سيُقدّر له أن يؤلّف كتاباً آخر؟».

والعلاقة الدقيقة التي تربط فورد بكل كتاب جديد يقدّمه للقارئ هي من الموضوعات التي تحظى باهتمام يكاد يكون استحواذياً لدى فورد نفسه. وهو، في هذا الصدد، يبادر إلى القول، في حوار قصير مع جايلز نشرته مجلة «نيوزويك»، عقب صدور روايته «عيد الاستقلال» حول هذا الموضوع: «إنّني أحاول أن أخترع المهنة بأسرها من جديد، فلا بدّ من أن يكون هناك دافع قوي لكي يؤلّف شخصٌ مّا كتاباً. وعندما يسألني الكتّاب الشبّان عن الكتابة فإنّني أقول: عاملوها كالزواج، ولا تقدموا عليها، إلاّ إذا لم تُفْلِحوا في إقناع أنفسكم بالعدول عنها».

ومسألة إضافة كتاب جديد إلى الرصيد المنجز بالفعل تستمد

حساسيتها، عند فورد، من حرصه على الكمال، من رغبته في أن يكون ما يقدّمه إضافة جديدة، وإبداعاً مختلفاً، وليس إعادة تأليف للكتاب نفسه بطريقة أخرى، أو استمراراً في الكتابة من جانب مؤلّف كان ينبغي أن يقلع عنها منذ وقت طويل.

من هنا، بالضبط، سيأتي قوله لأنطوني كوين في مقابلة مطوّلة نشرتها مجلة «إسكواير» في طبعتها البريطانية بعد صدور رواية «عيد الاستقلال» بوقت قصير: «في نهاية كلّ كتاب أقوم بإغلاق آلية الكتابة تماماً، أو شيء من هذا القبيل، وأعود إلى الصفر، وعندما أنتهي من كتابة رواية قصيرة، وأتوقّع أن يكون ذلك في وقتٍ مّا خلال نصف العام المقبل، فإنّني سأكفّ عن الاهتمام. ومازلت في سنّ تتيح لي التفكير في القيام بشيء آخر. وما من أحد قال إنّه بسبب تأليفك لستة كتب يتعيّن عليك أن تؤلّف كتاباً سابعاً، فأنت ترغب في تأليف ستة كتب جيّدة فحسب. وفضلاً عن ذلك فإنّنا جميعاً نعلم أنّ هناك الكثير من الكتّاب الذين يواصلون الكتابة وكان عليهم أن يتوقّفوا منذ سنوات».

غير أنّ هذا الحرص من جانب فورد على مطاردة الجديد، وعدم تكرار ما يقدّمه، في تجسيد مباشر لاهتمامه الدائم بالرحيل، والانطلاق تحت آفاق مفتوحة بلا انتهاء وتلمّس ملامح جديدة باستمرار، وهو ما سنرى أنّه يشكّل، من معالم دنياه الروائية، مَعْلماً رئيسياً قد يسيئ بعض النقّاد تفسيره.

كيف؟

في مقال يعد من أعنف الهجمات النقدية التي وجهت إلى فورد على امتداد تاريخه الإبداعي، نشرته مجلة «زاورلد أند آي» الأميريكة في عددها الصادر في سبتمبر ١٩٩٠، لا يتردّد الناقد والروائي الأميركي تشيلتون وليامسون، بعنوان «الحريق الهائل يبدأ في الدار»، في أن يقول عن مجمل إنجاز فورد الإبداعي حتى تلك المرحلة: «في غمار تصفّحي لأعماله ساورني شعور غير مريح بأنّ هذه الكتب لا ينبني كلّ منها فوق الآخر، ولا يضيف إليه كثيراً،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سواء على الصعيد الفلسفي أو الفنّي، وأنّها بشكل من الأشكال ليست منحوتة حقّاً من مجمل الاهتمامات الأساسية للكاتب».

فهل الأمور كذلك حقّاً؟ يغلب عليّ الظنّ أن ما يقوله وليامسون هنا يصوِّر خلطاً حقيقياً بين حرص فورد على ارتياد آفاق جديدة ومختلفة من حيث المكان والموضوع والشخوص، في كلّ عمل من أعماله، وبين عدم وجود خطوط مستمرّة في نسيج هذه الأعمال تُصوِّر رؤية كليّة للحياة وللوجود.

وفي اعتقادي أنّ نظرة، ولو عَجْلى، على محطات المشوار الإبداعي عند فورد، كفيلة بأن تجعلنا نضع يدنا على جانب من هذه الخطوط:

أ - أول ما سنلاحظه أنّ فورد يرتاد بنا مكاناً جديداً، في كل عمل من أعماله، يختلف تماماً عما سبقه، ربما باستثناء أحداث رواياته «عيد الاستقلال». فأول أعماله «قطعة من قلبي»، الصادر في العام ١٩٧٦ تقع أحداثه في ريف أركانساسبا، على ضفاف نهر مسيسبي، حيث نضع يدنا على نبض حياة الطبقة الريفية الدنيا، وعالمها الوجداني والذهني، وطموحاتها، وأحلامها، وعذاباتها.

ب - الرواية الثانية التي أصدرها فورد، بعنوان «منتهى الحظ الحسن»، تجري أحداثها في مكان آخر مختلفٍ كل الاختلاف عن الرواية الأولى. فالأحداث هنا تجري في أواكاساكا بالمكسيك، وتدور نماذج الارتجاعات الزمنية إلى الماضي التي تضمّها الرواية في ميتشيجان. وهي، في تقدير الكثير من النقاد، ومن بينهم أقل النقّاد تعاطفاً مع فورد، تُعَدّ نموذجاً بديعاً للكتابة المعاصرة، التي يمكن لأيّ روائي، يبدع تحت سماء المنعطف الرابع للقرن العشرين، أن يفخر بوضع اسمه عليها، حيث نلتقي هاري كوين، وهو ابن بائع للمعدّات الآلية اللازمة للمزارع، ومحارب قديم في فيتنام، وحارس سابق للصيد، وعاشقٌ فاشل، بل هو يبدو فاشلاً في أيّ شيء تقريباً قد يخطر على البال، ثم نجده في حالة إحجام وتمزّق متجدّدة، هي في جانب منها انعكاس لتفسّخ الطبقة الأمريكية

الدنيا، وفي جانب آخر صرخة يأس وجودي لا سبيل إلى أن تخطئها الأذن. وهكذا يقف القارئ أمام عمل تمّ إبداعه على مستوى متميّز، ورسم كل شيء فيه بصورة جيّدة، والشخصيات قابلة للتصديق، مفعمة بروح الوجع والشجن. والكتابة متميّزة، والمشاهد المكسيكية تقدّم للقارئ في إطار من الإبداع، الذي يعكس مهارة حقيقية ودرجة من الكمال الفنّي، تعد الأكثر قرباً من سقف الكمال الإبداعي المطلق.

- ج - وإذا كان فورد قد أوشك على التوقّف عن الكتابة كليّة، في ضوء تواضع مبيعات كتابيه الأوّل والثاني، فإنّ روايته التالية «كاتب الرياضة» الصادر في العام ١٩٨٥ ستصنع اسمه حقّاً، وتمضي به إلى آفاق الشهرة المدوية. ونلاحظ من جديد هنا أنّنا ننتقل إلى إطار مكاني مختلف تماماً، فنحن هنا في ولاية نيوجيرسي، نتابع ملامح حياة فرانك بيسكومب، الذي يعد تجسيداً فذّاً للرجل الأميركي العادي، إلى حدّ أنّه يبدو، للكثيرين، نسخة كربونية من ملايين البشر على امتداد أميركا. ومرّة أخرى فنحن أمام عمل على جانب كبير من التماسك، ويعكس توازناً مدهشاً على امتداد النصّ بكامله، حيث الراوية كاتب صحافي متخصّص في التقادير والمتابعات الرياضية، ينتمي إلى الطبقة المتوسّطة. وبينما تحفل حافظة نقوده ببطاقات الائتمان فإنّ رأسه يعصف به العذاب الذي يجتاح الضواحي الأميركية، ويكاد يطيح به إلى حافة الخواء الروحي والإفلاس الإنساني التام، وينتهي المطاف بفرانك وقد تقطّعت صلاته بزوجته وبولديه، وقبل ذلك بنفسه، وبالطبيعة من حوله، ومن ثم بالعالم بأسره.

د - في مجموعة «الينابيع الصخرية»، وهي المجموعة القصصية الوحيدة التي قدّمها فورد - حتى الآن - لقرّائه، وذلك في العام ١٩٨٧، على الرغم من أن كتّاب الواقعية القذرة، في معظمهم، يتخذون من القصة القصيرة قناة رئيسية لنقل إبداعهم إلينا - في هذه المجموعة سنلتقي ببعد لا يغيب أبداً في كل أعمال فورد، ولكنه هنا يرتفع إلى مرتبة الفكرة الكلية والمفهوم القابض والمهيمن، فجانبٌ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليس باليسير من الأحداث يقع في وسط مونتانا، ولكن المشهد لا يتكامل أبداً، إلاّ بالطريق الهائل، والخاوي، المفتوح والممتدّ بلا انتهاء، كأنه النغمة الحزينة الدالة في الحياة الأميركية المعاصرة، حيث يجد أبطال فورد أنفسهم عادة وقد وقعوا في قبضة إغراء وحش وهائل بأن يديروا محرّكات سياراتهم، وينطلقوا إلى البعيد، حيث لامكان إلاّ الطريق نفسه وسلاسل لا تنتهي من المطاعم والحانات ومحطّات الوقود المتماثلة، والتي تضمّ أناساً من النوع نفسه، وبالاهتمامات والهموم ذاتها، وذلك في انعكاس مباشر للحقيقة القائلة إنّ فورد قد وجد نفسه غريباً بين غرباء، فعلى الرغم من أنه قد ولد في جاكسون بولاية مسيسبي، إلاّ أنه أقام في كافة أرجاء الولايات المتحدة تقريباً فترات مختلفة، وعلى الرغم من أنّه يقيم حالياً في دار بشارع بوربون في حيّ سكني راق بمدينة نيو أورليانز، إلاّ أنه له دار في مونتانا، وأخرى في مسيسبي، لكنه لا يصف أياً من هذه الدور الثلاث بأنها «الدار» بالمعنى الإنساني والمطلق. وهو حتى عندما يجد من النقاد من يدعوه إلى الاستقرار النهائي في الجنوب الأمريكي، والكتابة عن الروح الجنوبية، لا يتردّد في الردّ متحدّياً بأنّ هذا هو بالضبط ما لن يفعله، لأنه لا يريد القيام به، بل ولا يريد أن يتقيّد على أيّ نحو بنزعة إقليمية.

هـ - مع صدور رواية «حياة وحشية» في العام ١٩٩٠ وعلى الرغم من أن أحداثها ستدور في وسط مونتانا كذلك، إلاّ أنها سوف تكرّس، وعلى نحو غير قابل للنقض، الحقيقة القائلة بأنّنا أمام الكاتب الذي يتولّى المسؤولية الصعبة المتمثّلة في قيادة تيار الواقعية القذرة في الأدب الأميركي، أمام كاتب يؤسّس في رواياته واقعية تقوم على الارتحال والتنقّل، على عالم بعيد عن الثبات والاستقرار، عالم هو عالم الطرقات الفسيحة، الممتدة بلا انتهاء، عالم العواطف المتمزّقة، والأرواح التي تسعى إلى الانعتاق من الخواء. حقاً اننا سنجد من النقاد من لا يتردّد في الإعراب عن اعتقاده بأنّ فورد لم يستطع، وربّما لم يَسْعَ، في المقام الأوّل، في غمار بنائه لهذه الواقعية، وفي غمار ارتحاله الدائم بلا انتهاء، إلى اكتساب معنى

روحي وحِسٌّ بالتمرّد على قوانين المؤسسة الرأسمالية، لأن الارتحال بالنسبة له كان أمراً شبه قدري، ومغامرة يزاولها بشكل عادي، إن لم نقل بصورة روتينية، ولكن من الجلي لكلّ من قرأ فورد بانتباه، وبحب، وفهم، وتعاطُف أنّ تلك قضية خلافية. هي بالتأكيد موضع الكثير من النقاش ووجهات النظر المتباينة. وربما كان أقوى ما في رواية «حياة وحشية» أنها تتناول بجرأة وباقتدار موضوع العواطف الفردية، التي تحتدم في مواجهة عالم خانق، بحيث تغدو السنة متباعدة، سرعان ما تشبّ وتتصاعد لتغدو أفقاً من لهيب وأشجار تموت واقفة.

و – عند هذا المنعطف، بالضبط، ستأتي رواية «عاشق النساء» لتشكّل انتقالاً مدهشاً حقاً، فهي من حيث المكان تدور أحداثها في غالبها بعيداً عن الضواحي الأميركية، وعن الطرق المفتوحة، وعن الريف الخاوي كأنه بلا روح، تدور في آخر مكان يمكن أن يخطر ببالنا: باريس. ومن حيث الموضوع يدور العمل في جوهره حول مفهوم الاغتراب، مع التركيز على البعد المتمثّل في انفصال الشخصيات عما حولها تماماً، بحيث يغدو من المستحيل الوصول إليها، أو مدّ الجسور نحوها. وقد أحدثت «عاشق النساء»، من التحوّل في مسار فورد الابداعي، ما وصل عمقه إلى حدّ أنّه وجد نفسه، من توقفه عن الكتابة، أمام حالةٍ تكاد تكون تامّة، وذلك لمراجعة مسيرته، حالةٍ لم يُخْرِجه منها في منتصف العام ١٩٩٥ إلا دَفْعُه إلى القارئ بالجزء الثاني من سيرة فرانك بيسكومب، بطل «كاتب الرياضة» في رواية «عيد الاستقلال»، وذلك من واقع ملاحظات وهوامش كان فورد قد كتبها بضمير المتحدّث بلسان بيسكومب، في مرحلة سابقة.

وعمق هذا التحوّل، وحدّة هذا الانعطاف في مسار فورد الإبداعي مع إطلالة «عاشق النساء»، يمكن أن يظهر لنا من خلال الملاحظات التالية حول هذه الرواية، وهي ملاحظات أقرب إلى حديث مع النفس بصوت عال، حول هذه الرواية الشديدة الثراء، رغم محدودية عدد صفحاتها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولسنا نرغب في أن نمضي بهذه الملاحظات إلى مداها الكامل، فهذا من شأنه أن يخرج بهذه المقدّمة عن إطار أغراضها، فلنكتف إذن بإشارات عاجلة، تاركين التفاصيل الدقيقة لتحليل أكثر استفاضة في الفصل المعقود عن ريتشارد فورد في كتاب «الواقعية القذرة» من تأليفنا، والذي نأمل أن ندفعه إلى القارئ العربي، في وقت جد قريب.

○ الملاحظة الأولى: يكاد يكون من المستحيل أن يوجد حوار منشور مع ريتشارد فورد يخلو من إشارة، ولو عابرة، إلى إحدى الموضوعات الأساسية في عالمه الإبداعي، وهي موضوعة انتزاع الإنسان من عالمه اليومي المألوف ودفعه إلى عالم آخر جديد، ومحاولته رسم معالم صورة إنسانية لهذا العالم الجديد تقوم على الاقتراب والتعرّف وخلق علاقة إنسانية معه. ومن المؤكّد، بالقدر نفسه، أنّه ما من عمل لفورد يخلو من تجسيد حي ومتوهّج لهذه الموضوعة. ومن المؤشّرات الدلالية، التي تتجمّع على نحو مُلْغِز وغامض وملتبس ولا يفضي بأسراره إلاّ لمن يرصد ملامحها ويتابعها يحاول المضي عبرها مؤشّراً إثر الآخر، إلى جوهر خفي يقودنا إليه المؤلّف، أو إن شئت الدقّة فقل النص، على نحو ما وصل إلينا، سواء أراد المؤلّف ذلك أم لم يرده.

وفي السطر الأوّل من «عاشق النساء» لا نبدأ من البداية، ولا من النهاية أيضاً، وإنّما من نقطة في مسار الأحداث يضل فيها البطل، مارتين أوستن، طريقه وسْط شوارع باريس، وهو يحاول الوصول إلى شقة جوزفين بليار، ومن المدهش هنا أنّه يحاول الوصول إلى مكان يعد مَعْلَماً بارزاً من معالم باريس، حدائق اللوكسمبرج، والذي تطلّ الشقة عليه، ومع ذلك فها هو يخطئ، فينعطف في شارع سارازان الضيّق، متصوّراً أنّه سيفضي إلى شارع أكثر اتّساعاً، ربما كان شارع فوجيرار، الذي يمكنه أن يمضي عبر امتداده للوصول إلى شقّة جوزفين بليار.

وبعد أسطر قلائل سنعرف الحقيقة البسيطة: ان مارتن أوستن من شيكاغو. وعلى الفور يدور في ذهننا سؤال محدّد: ما الذي

انتزعه من عمله الناجح في تسويق الورق الفاخر هناك، ومن بين أحضان زوجته المحبوبة، بربارة، ومن عالمه الواضح والمجدّد والدقيق ليضلّ طريقه في باريس، عبر شوارع يحاول عبثاً أن يعرفها، ليصل إلى امرأة لم يقدر له قط أن يعرفها بصورة حقيقية، وليُعْنى بطفل لم يره من قبل، ويحاول دخول حياة لن يُقَدَّر لها أبداً أن تبدأ، فضلاً عن أنّ مقوّماتها لن تتكامل؟ هذا الحشد من المعاني يفجّره السؤال الهادر الذي ستوّجهه إليه جوزفين: «من أنت؟».

○ الملاحظة الثانية: ربما كانت الرواية الماثلة بين أيدينا في جوهرها، أو في الجانب الأكثر قوّة منها، محاولة لاكتشاف مغاليق هذا السؤال نفسه؛ ربما كانت، بشكل من الأشكال، رحلة مع مارتن عبر متاهة اغترابه، ليعيد اكتشاف نفسه. وعلى الرغم من أنّ الجانب الأعظم من أحداث الرواية يقع في باريس، إلاّ أنّ المنطلق الحقيقي، الذي ينبغي أن نرصده، هو علاقة مارتن بنفسه، وبزوجته بربارة، وبعمله في الترويج للورق الفاخر الذي يستخدم في إصدار طبقات دوائر المعارف والقوانين والكتب المتميزة (ترى هل اختيار هذه المهنة وهذا المنتج بشكل خاص يُعد من قبيل الصدفة؟ أليست هذه المطبوعات هي، بشكل خاص، الإصدارات التي تضمّ الحقائق الأساسية المتعلّقة بالحياة والوجود والكون الواسع من حولنا؟ وما الذي يعنيه قيام مارتن بإلغاء التزاماته في أوروبا للبقاء في باريس، وكأنّه يقول وداعاً لهذا الورق وحقائقه التي اكتشف أنّها ليست الحقائق بالمعنى المطلق، وأنّ عليه، هو نفسه، أن يعيد اكتشاف حقائقه الخاصة التي طالما احتجبت عنه وراء ضباب العادي والمألوف؟).

إنّ النصّ يقدّم لنا إضاءة من خلال الظلال؛ فلقاء مارتن الأوّل مع جوزفين لم يكن إلاّ عبر لمحة عَجْلى في مكتبها الغارق في الظلال، بدار النشر التي تعمل فيها محرّرة مساعدة، وهي غارقة في الحديث بالانجليزية عبر الهاتف وبالكثير من الإشارات التي تصاحب حديثها. وفي هذا المكتب الغارق في الظلال سنلتقي بُعْدين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

محدّدين، هما بُعد انفصال وبعد اتصال. فالانفصال يجسّده غرق المكتب في الظلال وبُعده عن أن يكون محطاً للاهتمام. ولهذا بالضبط كان يمكن، لجوزفين، أن تكون من الأشخاص العاديين، الذين ينزلقون من سطح الذاكرة دون أن يتركوا أثراً يذكر. ولكن هنا بالضبط ينهض بُعد الاتصال. فهي تتحدّث الانجليزية، اللّغة التي يتحدّث بها مارتن، والتي لا تسعفه في مدينة تعتد أشدّ الاعتداد بلغتها المباينة، وثقافتها المغايرة، وتتمسّك بهما إلى حد التحيّز المطلق، بل تصل إلى مستوى التعصّب الكامل لهما. ولعلّ من هنا كان لاتصال مارتن الهاتفي أن يجيء، حسبما يشير النص: «ولم يكن في ذهنه شيء محدّد، إنّه مجرد اتصال هاتفي عشوائي، مجرد من المعنى».

ولكن من المؤكّد أن الأمر ليس على هذه الدرجة من العشوائية، فبدء صلته بجوزفين على هذا النحو، وتطوّر هذه الصلة بصورة مذهلة، خلال ثمان وأربعين ساعة، لا يوحيان بسحر مارسته جوزفين عليه، وإنما يشيران إلى أنّ هناك خُواء حقيقياً في علاقة مارتن بزوجته بربارة.

هذه العلاقة، علاقة مارتن ببربارة، لا يمكن إلاّ أن تثير دهشتنا، فنحن نعلم أنّ بربارة تُشكّل، عنده، عالماً بأسره، وانهما تزوجا عن حب، وعاشا حياة بلغ تصوّرهما لامتلائها الحد الذي دفعهما إلى اتخاذ قرار بعدم الانجاب.

هنا يلقي النصّ بعلامتين تقودان مسيرتنا لفهم الدرجة التي وصلت إليها حالة الاغتراب التي تفرض نفسها بينهما..

أ – الاتصال الهاتفي بينهما عبر المحيط لا يمتد ليكون تعبيراً عن اللهفة والشوق إلى اللقاء، بل ليكون مشادة مكلفة يبعث الصمت الذي يتخلّلها برسالة إلى طرفيها تؤكّد مدى التخريب الذي أصاب العلاقة بينهما.

ب – الاتصال الجنسي بينهما، مساء عودة مارتن إلى داره، يبدو أقرب إلى ملمح في مأساة اغريقية. والنصّ يضيء لنا حقيقة

هذا الاتصال، على نحو لا سبيل إلى تجاوزه دون تأمّل دلالاته، حيث نقرأ:

«في وقت متأخّر من تلك الليلة، وكانت ليلة ثلاثاء، ضاجع برباره مضاجعة قصيرة، يأخذ السكر بأكنافها، في ظلام غرفة نومهما ذات الستائر الكثيفة، على نباح كلب الجيران السنبلي الصغير، الذي لم يتوقّف عن الدوي على مسافة شارع واحد منهما. كانت مضاجعة تفصح عن مراس، وتخلو من المفاجآت، مجموعة من البروتوكولات والافتراضات التي درجا عليها بحب، كأنّها طقس ديني، والتي تؤشّر، وإن لم ترتبط كثيراً بالألغاز والعماء الذي جعلها ذات يوم ضرورة تتقطع لها الأنفاس. ولاحظ أوستن، من خلال الساعة الرقمية الموضوعة على خزانة الأدراج، أن الأمر بكامله لم يستغرق إلاّ تسع دقائق، من البداية إلى النهاية. وراح يتساءل متجهماً: أعاديٌّ هذا التوقيت، أم أقلّ من عادي، للأميركيين الذين هم في مثل سنّه وسن بربارة. وقد افترض أنّه أقلّ من عادي، على الرغم من أنّه لم يكن هناك شك في أن القصور يقع على كاهله».

إن طول هذا المقتطف يبرّره، بالتأكيد، تعدّد الاضاءات التي يحققها لنا ما نجد أنفسنا حياله. فالصلة الجنسية، التي ارتفع بها الزوجان إلى مصاف الطقس، هي في جوهرها نقيض ذلك، بالضبط. إنها الأداة الأكثر عضوية وبدائية وحميمية، التي تعيد بها الطبيعة تفكيك كل ما هو طقوسي وآلي ومرتّب مسبقاً لتمنحه انطلاق نسيم الغابة وعفوية اللهو على أغصانها. ووصول هذه العلاقة إلى طريق مسدود إعلانٌ بأنّ كلّ ما في العلاقة بين الزوجين قد تكلّس وتحجّر وغدا تعبيراً عن انفصال بينهما لا سبيل معه إلى إعادة مدّ الجسور.

ولعل من غير المستغرب، للسبب عينه، أن تنفجر برباره في مشهد المطعم لتكيل لمارتن الاهانات، قبل أن تخرج، وكأنها تخرج من حياته بأسرها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كذلك لعلّ من غير المستغرب، وللسبب عينه، أن يحمل مارتن حقيبته، ويمضي عبر المحيط، تاركاً الولايات المتحدة بأسرها وراء ظهره.

إنّ التصرفين يبدوان لنا وليدَيْ لحظة مفاجئة. ولكنهما، بالطبع، ليسا كذلك، وإنّما هما الطبيعي والمنطقي والعقلي في علاقة القى الاغتراب المطلق، والذي لا سبيل إلى تجاوزه، بظلاله عليها.

ولكن لوحة الاغتراب التي تشكّل حياة مارتن أوستن لا سبيل إلى أن تتكامل إلا إذا تلمّسنا بُعدين في غاية الأهمية:

أ – علاقة مارتن بنفسه.

ب – علاقته بعمله.

ومن خلال تحليل، كالذي حاولناه قبل قليل، يمكننا أن نصل، فيما يتعلّق بالبعد الأوّل، إلى الحقيقة البسيطة: إن مارتن لا يملك إجابة حقيقية عن السؤال الذي طرحته عليه جوزفين في نهاية الرواية، ولكننا، باليقين نفسه، نستطيع القول إنّه ليس ميتاً، ولم يصل إلى حد العدم، على نحو ما قالت جوزفين في كلماتها الغاضبة الأخيرة. حقاً إنّه يضطرب في ليل من الحيرة والضياع والتخبّط، ولكن مجرّد تملّصه ومحاولته الانتقال للحياة تحت أفق جديد، هو جهد إنساني للانعتاق من قبضة الاغتراب الوحشية، أو على الأقل لفهمه، تمهيداً لمواجهته ومحاولة قهره.

والبعد الثاني لا يتناوله النصّ بأيّ درجة من التفصيل، وإنّما يشير إليه بلمحة عابرة، في جانبين محدّدين، أوّلهما حديث مارتن مع رئيسه في العمل عبر الهاتف، وهو حديثٌ نسيجُه البُرود، الذي يَشِي بعداء حقيقي، هو جوهر علاقة مارتن بعمله. ولكنه يدرك أنّ القطيعة مع العمل لا معنى لها، وإنّما المعنى كل المعنى هو لقطيعة مع عمل لم يعد يعني له شيئاً، ولم يعد يوفّر له فضاء إنسانياً رحباً، ولهذا بالضبط، فإنّه يبدأ الحوار مع صديق أميركي له في باريس حول المشاركة في العمل في ميدان تكييف الهواء، وإن لم يُترجم هذا كلّه إلى خطوات فعلية.

○ الملاحظة الثالثة: تجسد جوزفين بليار تقليداً ممتداً بلا انتهاء في كتابات فورد، يدور حول نساء لا سبيل إلى نسيانهن، فهي، لهذا البعد، تعيد إلى أذهاننا على الفور حشداً من النّساء في عالمه الروائي، في مقدّمتهن جانيت برونسون، بطلة «حياة وحشية».

هذه النوعية من النساء هي من القوّة بحيث تتحدّى إمكانية النسيان، ولكن ذلك لا يعني أنّ هذه الإمكانية نابعة من الطابع الإيجابي للنساء، وإنّما هي صادرة، على وجه التحديد، من قدرتهن على التأثير، وعلى لفت الأنظار، وعلى الإعلان بالحضور، الذي يوشك أن يكون صرخة في وجه الوجود بأسره.

والعلامةُ – الإضاءة، الأكثر بروزاً، والتي يقدّمها لنا فورد في غمار ارتيادنا لعالمها الغامض والملتبس، هي تلك اللحظة الفريدة التي تخلق الحميمية بينها وبين مارتن أوستن إلى حدّ تقبيله لها، في عتمة سيارتها، أمام فندقه، غير بعيد عن مخفر الشرطة نفسه، الذي ستنتهي عنده أحداث الرواية. إنّها لا تبادر بالتحرّك، ولا بالترحيب، ولكنها أيضاً لا ترفض، ولا تقاوم، وكل ما تقوله في غمار قبلتهما هو.. لا. لا. لا. لا. لا».

ما الذي يعنيه هذا؟

إنّه تجسيد لفلسفة جوزفين في الحياة، فهي تترك الأشياء تحدث لها، إنها لا تسعى إليها، لا تنشدها، لا تطاردها، ولكنها أيضاً لا تقاومها، على الأقلّ ليس بصورة قاطعة حادّة باترة. وهذا الموقف هو نفسه الذي ستتخذه في مواجهة محاولة مارتن لرفع درجة الحميمية بينهما، لدى انفرادهما في غرفتها، حيث ستهتف به: «توقف! ما الأمر؟». ولكنها أيضاً لن تدفعه بعيداً، ولن تعامله بتصلب، ولا بشدّة، أو قسوة، وإنّما ستتركه يقبلها بطريقته الخاصة، كبديل من طريقتها القوية والمجرّدة من العاطفة معاً.

لكن جوزفين الحقيقية لن يتكشّف عنها النص إلا في نهاية الرواية، خلال حوارها الغاضب مع مارتن أمام المخفر، حين يتكشّف لنا ما جعل زوجها يصل إلى كل هذا الحنق والسعي إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الانتقام عندما خانته. ولسوف ندرك جوهر ما جعلها تجتذب مارتن من بين كل الباريسيات، اللواتي يفقنها جمالاً ولباقة وجاذبية. إنّها تلك القوّة النابعة من الشعور بالمسؤولية، ومن الإدراك الحقيقي للحياة وأهميتها ووزنها ودوامها. ومن المؤسف حقاً هنا أن النصّ يحدّثنا عن هذا، ولا يدعه يتناهى إلينا في تضاعيف الأحداث.

○ الملاحظة الرابعة: أنّ بربارة تعد الغائب – الحاضر الكبير في «عاشق النساء». وهذا يبدو بوضوح منذ الإضاءة السيميولوجية الأولى في النصّ لحضورها ففي الاتصال الهاتفي الذي يشكّل لقاءنا الأوّل بها، والذي يجريه معها مارتن عبر المحيط، ستعلن عن حضورها القوي من خلال فترات الصمت التي تتخلّل هذا الحوار. وإذا كان صحيحاً أن الصمت خطاب يكتسي قوّة إضافية، فإنّ رسالة بربارة تصلنا بوضوح عبر الأسلاك من الجانب الآخر من المحيط.

والنص لا يدعنا للحيرة طويلاً بشأن هذا الحضور الكلّي لبربارة في حياة مارتن. إننا نقرأ: «في حقيقة الأمر ان بربارة اجمل النساء اللواتي قابلهن وأكثرهن إثارة للاهتمام، وهي الإنسانة التي تحظى بأكبر قسط من الإعجاب منه. ولم يكن متطلّعاً إلى حياة أفضل، ولم يكن يَنْشُد أيّ شيء. لقد احبّ زوجته، وكان أمله أن يقدّم لجوزفين بليار منظوراً إنسانياً مختلفاً عما تعوّدته».

ماذا إذن؟ ما الذي يفجر حياته معها؟ ما الذي يدفعه إلى الخروج من جنّة عدن هذه التي تبدو سرمدية لدى النظرة الأولى؟

إنّ بربارة، كما يبيّن عبر الإضاءات السيميولوجية في النص، لا تملك ردوداً على علامات الاستفهام هذه، وكل ما هنالك أنّها تدرك أن زوجها قد غدا بعيداً ولا سبيل إلى مدّ الجسور معه، ولكنها تميل إلى معالجة ذلك من خلال تعليق الآمال على أن الأمور ستعود إلى مدارها من تلقاء نفسها. وهكذا فإنها تراهن على آلية مسار الحياة، على ثقل الاعتياد، على طغيان الحياة اليومية، دون أن تدرك أنه من قلب هذا كلّه نبعت قوّة الطرد التي أخرجت زوجها من

مساره، وهي تهمس له مؤكّدة: «إنّنا معاً، ونحن متحابان، وأياً كان ما نريد جَعْله ممكناً فينبغي أن يكون بمقدورنا جعله كذلك».

فهل تمضي الأمور على هذا النحو؟

ليس تماماً، ليس في الضواحي الأميركية التي تعوي الريح في خوائها الإنساني، ويدور دولاب الضياع في فراعها الموحش. وبربارة سرعان ما تدرك هذا بقوة، ووضوح، وعلى نحو لا مجال للشك معه، فتخرج من حياة مارتن في مشهد المطعم العاصف.

○ الملاحظة الخامسة: من الحقائق المهمّة لكلّ المهتمين بأدب فورد، اهتمامه الهائل بكلّ التفاصيل والجزئيات الدقيقة المتعلّقة بالمكان، وهو اهتمام يصل إلى حدّ الاستحواذ في «حياة وحشية». فكيف يتجلّى هذا البعد أمامنا هنا؟

من شأن الاهتمام الحقيقي بهذا البعد أن يقودنا إلى قراءة تكاد تمتد سطراً بسطر لـ«عاشق النساء». ولست أريد هنا القيام بهذا النوع من القراءات، لكنني أودّ طرح بعض الإشارات التي تقدم أمثلة مهمّة ودالة حقّاً.

فمنذ السطور الأولى للرواية، سنعيش ذلك الانتزاع من المكان المألوف إلى مكان آخر مجهول، يتعيّن على العين أن تألفه، وعلى العقل أن يستوعبه، وعلى الوجدان أن يتعاطف معه. وتلك أمور يبدو من الصعب على مارتن أوستن أن يتعامل معها، لكنه قدِّر له أن يواجهها، فها هو يضرب في شوارع باريس محاولاً الاستدلال على ذلك الشارع الذي سيشقّه ليمضي مباشرة إلى حدائق اللوكسمبرج، ومن ثَمّ إلى شقّة جوزفين القريبة منها، وهو حين يعود إلى باريس ويعثر لنفسه على شقّة في شارع بونابرت، سيواجه الصعوبة ذاتها، وسيتعذّر عليه أن يحدّد بدقّة مدى بعدها أو قربها من ميادين رئيسية ومعالم بارزة في المدينة الكبيرة التي تحيّره المفارقة بين النماذج الخشبية المصغرة لمعالمها والواقع المتدفّق بالحياة خارج المتجر الذي يبيع تلك النماذج المصغّرة.

ولكن ما هي علاقة مارتن بالأماكن التي اقتلع منها، ولماذا جاء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا الاقتلاع؟ إننا سنتلقّى الإجابة عن هذا السؤال من خلال مكانين محدّدين جديرين حقاً بدراسة مطوّلة، أوّلهما الدار، وثانيهما المطعم الذي شهد الصدام بين مارتن وبربارة وخروجها إلى رحاب الليل بعيداً عن حياتهما، وربما إلى رحاب الموت، حسب الهاجس الذي يداهمه في نهاية الرواية.

إن الدار، بالنسبة لأي إنسان، هي قلعته، هي ملاذه، هي قوقعته، هي تعبير «عندي» بمعناه المطلق، وفقاً لتقسيم مول ورومير لأنواع الأماكن، وذلك في تناقض حاد مع تعبير «عند الآخرين» الذي يندرج المطعم في إطاره.

وأوّل ما سيلفت نظرنا في هذه الدار أنها لن تحقق لنا تلك الحميمية التي هي الوظيفة الأولى للدار، فهي تبدو لنا وقد فقدت بعدها الإنساني، وتحوّلت إلى «المكان اللامتناهي» وغدت مكاناً خالياً من الناس، كالصحراء، ويرتبط بالمغامرة في الوقت نفسه. ولعلّ هذا بالضبط هو ما يجعل مارتن يبادر إلى سحب حقيبته وإلقاء بعض الأغراض فيها والانطلاق نحو المطار في طريقه إلى باريس.

ولا ارتاب في أنّ شقّة جوزفين وشقّة مارتن في شارع بونابرت تستحق كلّ منهما دراسة مفصّلة تندرج في هذا الاطار. ومع ذلك، فإنّ المكان الذي ينبغي أن يحظى باهتمام حقيقي لا يعدو ذلك الجزء، من حدائق اللوكسمبرج، الذي سيمضي إليه مارتن وليو، وبصفة خاصة أَجَمَة الطقوس.

إنها مجموعة ملتفة من الأشجار، تعكس تبايناً رهيباً منذراً بالمأساة، بين مظهرها الخارجي وجوهرها الباطني. فهي من الخارج خضرة ساحرة وظلال وفيرة وأمن يترع النفس بالطمأنينة، بل يشير النصّ إلى أنّ فتنة هذا المكان تغري بقيلولة أو بممارسة الحبّ.

ولكن هذا المكان، الذي لا يبعد كثيراً عن ملاعب التنس، حيث أصوات ارتطام المضارب بالكرات وثرثرة النسوة المترعة بالضحكات، سرعان ما يتكشّف، لدى اقتحام مغاليقه، عن ظلام

مطبق ،ومأساة وحشية، وفضلات إنسانية ونفايات، وجذور وجذوع أشجار، وتراب ورطوبة خانقة، وأخيراً صرخة الصغير ليو المفعمة بالرغب والاحتجاج.

... وبعد، فهذا كتاب محدود الصفحات، لكنه يفتح للقارئ والكاتب العربي أفقاً جديداً، يمتدّ رحباً، بلا انتهاء، هو أفق أدب الواقعية القذرة، ولا أشكّ في أنّ تلك بداية وراءها شلاّل هادر من الاهتمام العربي بهذا التيّار الأميركي، الذي سيدهشنا بقدرته على تحقيق التواصل معنا، وربّما عُلِّل ذلك بأنّ مؤلّف هذه الرواية إنما يضع يده على الأوتار الإنسانية ذاتها التي يحاول كثير من المبدعين، على امتداد عالمنا العربي، أن يعزفوا عليها، وإن اختلفت سبل المقاربة وآفاق النغم.

كامل يوسف حسين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ١ -

انعطف أوستن في الشارع الضيّق - شارع سارازان - الذي كان يأمل أنه، عند بدايته، سيصل إلى شارع أكبر، شارع كان يعرفه. لعله شارع فوجيرار، الذي يمكنه أن يمضي على امتداده إلى شقة جوزفين بلبار، قرب حدائق اللوكسمبرج. كان في طريقه إلى الجلوس مع ليو، ابن جوزفين، بينما تمضي جوزفين إلى محاميها لتوقيع أوراق طلاقها من زوجها، ثم يصحبها لتناول عشاء رومانسي. كان زوجها، برنار، روائياً من الطراز الرخيص، أصدر رواية فضائحية، تظهر زوجته فيها، وقد استخدم اسمها، وفضح خصوصيتها بكل التفاصيل الدقيقة. وقد وصل الكتاب المكتبات لتوّه، وعكف كل من تعرفهم على قراءته.

كانت جوزفين، في الليلة الأولى التي التقاها أوستن خلالها، الأسبوع الماضي فحسب، عندما صحبها لتناول طعام العشاء، كانت قد قالت كذلك:

- ليس تأليف مثل هذا الكتاب بالعمل السيِّئ، فذلك قراره. وأنا مراجعة. طيب؟ ولكن. نشر هذا؟ لا. إنّني آسفة. زوجي - إنّه خراء. ماعساي أن أفعل؟ سأقول له وداعاً.

مارتن أوستن من شيكاغو. متزوّج لم ينجب أطفالاً، قد عمل لحساب شركة عريقة تمتلكها إحدى العائلات، تبيع ورقاً غالي الثمن، مصنّعاً بشكل خاص للناشرين الأجانب المتخصصين في

إصدار المراجع. وكان في الرابعة والأربعين من عمره، وقد عمل لحساب الشركة نفسها، شركة ليلنتال في وينتكا، خمسة عشر عاماً. وقد قابل جوزفين في حفل كوكتيل في فندق إنتركونتيننتال، وهو حفل أقامه ناشر قام بزيارته تكريماً لأحد مؤلّفيه المهمّين. وقد دُعي للحفل على سبيل المجاملة فحسب، لأن الورق الذي تنتجه شركته لم يستخدم في إصدار كتاب هذا المؤلّف، وهو كتاب في علم الاجتماع يبرز الشعور بالوحدة والعزلة لدى المهاجرين العرب، مستخدماً معادلات تفاضلية معقّدة. وكانت فرنسية أوستن بعيدة عن التكامل – وكان في مقدوره على الدوام الحديث بأكثر مما كان في مقدوره الاستيعاب – ومن هنا فقد وقف وحيداً على هامش الحفل، وراح يحتسي الشمبانيا، وقد بدا عليه السرور وعلّق الآمال على سماع الحديث بالانجليزية، وأن يجد من يستطيع محادثته، بدلاً من شخص قد يسمعه يتحدّث بالفرنسية، ثم يستهلّ حواراً لا يستطيع أن يتبيّن له معنى.

كانت جوزفين بليار محرّرة معاونة في دار النشر، امرأة فرنسية صغيرة الحجم، رشيقة القد، فاحمة الشعر، في الثلاثينيات من عمرها، ذات جمال فريد، فمها أوسع قليلاً ممّا ينبغي، وأرفع قليلاً مما ينبغي، ذقنها ناعمة، تكاد تكون متراجعة، وكانت مع بَشَرَة ناعمة في لون حلوى الكرميله، وعينين سوداوين، وحاجبين داكنين، وجدها أوستن جذابة. وقد لمحها أوستن لمحة عَجْلى في وقت سابق من هذا النهار، عندما زار مقرّ الناشر في شارع ليل. وقد جلست إلى مكتبها في مكتب صغير تغمره الظلال، وهي تتحدّث بالانجليزية في الهاتف بسرعة ومع بعض الايماءات. وحدق فيها، وهو يمرّ بها، ولكنه نسي أمرها إلى أن أقبلت عليه في الحفل، وابتسمت، وسألته بالانجليـــزية عن رأيه في باريس. وفي وقت لاحق من تلك الليلة صحبها إلى دارها في سيارة أجرة، ثم عاد إلى فندقه وحيداً، ودلف إلى فراشه.

ومع ذلك فقد اتصل بها هاتفياً في اليوم التالي، ولم يكن في ذهنه شيء محدّد، إنّه مجرّد اتصال هاتفي عشوائي مجرّد من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المعنى. ربما كان بوسعه أن يضاجعها – لم يكن الأمر راجعاً إلى أنّه فكّر في ذلك. وإنّما كان مجرّد احتمال، خيار حتمي. وعندما سألها: أتحبّ مقابلته مرّة أخرى؟ قالت إنّها تحب ذلك إذا أراد، ولم تقل إنّها قضت وقتاً طيّباً البارحة. لم تذكر ذلك إطلاقاً. وأحسّ أوستن أن الأمر يبدو كما لو أنّ ذلك الوقت لم يكن له وجده على الاطلاق. ولكنه موقف وَجَدَه جذاباً، فقد كانت لبقة، تحكم على الأشياء، لم يكن موقفاً أميركياً على الإطلاق، ففي أميركا من شأن المرأة أن تبدو مهتمّة، ربما على نحو يفوق اهتمامها وإمكانية هذا الاهتمام بعد لقاء واحد لا خير منه.

مضيا في ذلك المساء إلى مطعم إيطالي صغير، صاخب، قرب جادة دي لي، وهو مكان ذو أضواء براقة، ومرايا على الجدران، وطعام لم يكن شهياً للغاية. وقد طلبا نبيذ ليجوريا الخفيف، وسكراً قليلاً، وانهمكا في حوار طويل وحميم من بعض الجوانب. وحدّثته جوزفين بأنّها ولدت في ضاحية أوبرڤييه، الواقعة إلى الشمال من باريس، وتاقت إلى مغادرة دارها، والتحقت بالجامعة، ودرست علم الاجتماع، بينما كانت تقيم مع أبويها، ولكنها الآن لا تربطها صلة بأمها، أو بأبيها، الذي هاجر إلى أميركا في أواخر السبعينيات، وانقطعت أخباره. وقالت إنها تزوجت، منذ ثماني سنوات، من رجل أحبّته يوماً، وأنجبت طفلاً، ولكنها لم تحبّه بشكل خاص، وانها، قبل عامين، بدأت، مع رجل آخر، رجل أصغر سناً، علاقة حُبٍّ لم تدم إلاّ وقتاً قصيراً، ثم انتهت، على نحو ما توقعت أن يحدث. واعتقدت فيما بعد أن بوسعها أن تعاود دخول الحياة على نحو ما تركتها بشكل أو بآخر. استمرارية بورجوازية تدوم العمر كلّه. ولكن زوجها صدم، واستشاط غيظاً إزاء عدم وفاء زوجته، وهجر شقتهما، وترك عمله في إحدى شركات الإعلان، ووجد امرأة يعاشرها، وعكف على كتابة رواية موضوعها الوحيد تجاوزات زوجته، التي أبلغت أوستن أن من الواضح أن بعضها قد اخترعه اختراعاً، ولكن البعض الآخر كان من الطريف أنه دقيق على نحو مدهش.

قالت جوزفين، وهي تضحك:

– اتعلم؟ ليس الأمر راجعاً إلى أنّني الومه، فمثل هذه الأمور تحدث، والآخرون يفعلون ما يرضيهم. وهكذا؟

أطلّت من نافذة المطعم، على صف السيارات المتوقفة على امتداد الشارع.

– ولكن ما الذي يحدث الآن؟

قالها أوستن محاولاً العثور على جزء من القصّة يسمح له بالنفاذ إليها. عبارة، إيماءة، يمكن أن تطرح لتدعو إلى اهتمام أكبر من جانبه، رغم أنّه لم يكن هناك شيء من قبيل هذه العبارة.

– الآن؟ إنّني أقيم مع طفلي وحدي. تلك هي كل حياتي.

تطلعت، على حين غرة إلى أوستن، واتّسعت عيناها، وكأنها تقول: «أي شيء آخر هناك؟ أي شيء آخر غير ذلك هناك؟» وفي الحقيقة أنها قالت ذلك.

قال أوستن:

– لست أدري. هل تعتقدين أنّك ستعودين إلى زوجك؟

كان هذا سؤالاًأسعده كثيراً أن يطرحه.

– نعم. لا أعرف. لا، ربما.

قالتها جوزفين، وهي تمطّ شفتها السفلى قليلاً وترفع إحدى كتفيها، في إشارة عدم اكتراث اعتقد أوستن أنها تتطابق تماماً مع المرأة الفرنسية. ولم يزعجه استخدام جوزفين لها، ولكنه كره عادة الناس في اصطناعهم لتلك الإشارة. لقد كان من الجلي أنها زائفة، وتجيء على الدوام في صدد موضوعات مهمّة يرغب الشخص في التظاهر بأنها ليست كذلك.

ورغم ذلك، فإنّ جوزفين لم تبد بمظهر المرأة التي تعيش قصة حب، ثم تتحدّث عنها بلهجة الأمر الواقع مع شخص لا تكاد تعرفه (بدت أقرب إلى امرأة عزباء تبحث عمّن يهتم بها). ومن الجلي أنها كانت أكثر تعقيداً، وربما أكثر ذكاء ممّا حسب، وواقعية تماماً في ما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتعلّق بالحياة، وإن كانت تحسّ خيبة الأمل على نحو ممدود. وإذا أراد أن يدفع بمسألة الحميمية قدماً، فربما كان بمقدوره أن يصحبها إلى غرفته، وهو أمر سبق له أن فعله في رحلات عمل، وحتى لو لم يحدث ذلك مرّات عديدة، فقد وقع عدداً كافياً من المرّات، بحيث أنّ القيام بذلك الآن لن يكون شيئاً غير عادي أو شيء له مغزاه، على الأقل ليس بالنسبة له، فَتَقَاسُم حميمية غير متوقعة قد يقوّي زخم قبضتيهما على الحياة.

مع ذلك، فقد كانت هناك درجة من الافتقار إلى اليقين تحيط بهذه الفكرة نفسها، وهي فكرة اعتاد أن تخطر له كثيراً، بحيث أنه لم يكن بمقدوره النأي عنها. ربما كان صحيحاً أنّه على الرغم من استلطافه لها، وحبّه لصراحتها، والطبيعة المباشرة لسلوكها نحوه، فإنّ الحميمية لم تكن ما يريده. لقد كانت جوزفين تجتذبه على نحو مدهش، ولكنه لم يكن منجذباً نحوها جسدياً. وقد حدّث نفسه بأنّه، وهو ينظر إليها عبر المائدة، ربما كانت الحميمية معه آخر شيء تهتمّ به على ظهر الأرض. كانت امرأة فرنسية، وهو لا يعرف شيئاً عن الفرنسيات. ربما كان وهم الحميمية المحتملة هو كلّ ما تشعّه النساء الفرنسيات حولهن، والجميع على علم بذلك. وربما لم تكن تهتم به على الإطلاق، وإنما تقضي وقتاً فحسب. إن مجرّد تبنّي هذه الرؤية المركبة جعله يشعر بالحبور.

أنهيا تناول العشاء في صمت مثقل تظلّله الأفكار. وأحسّ أوستن أنه على استعداد للشروع في حديث طويل عن حياته، عن زواجه وامتداده وزخمه ومشاعره حياله وحيال نفسه. كان على استعداد للحديث عن الشعور المقلق وغير المريح الذي ساوره مؤخّرا حَوْلَ أنه لا يعرف، على وجه الدقّة، كيف يجعل ربع القرن المقبل من العمر مليئاً بالأحداث ومهماً كربع القرن السابق، وهو شعور يواكبه الأمل بأن شجاعته لن تخونه إذا ما اقتضى الأمر شجاعة، واليقين بأنّ الجميع يتملّكون ناحية حياته ويطلبون منه التعايش مع أخطائه ومخاوفه... إلخ. لم يكن الأمر راجعاً إلى أنّه شَقِي مع بريارد، أو أنه يفتقر إلى أي شيء، فهو لم يكن، على نحو

تقليدي، رجلاً بائساً يمضي مبتعداً عن زواج غدا أمرا متعباً. ففي حقيقة الأمر أنّ بربارة أجمل النساء اللواتي قابلهن واكثرهن إثارة للاهتمام، والإنسانة التي تحظى، منه، بأكبر قسط من الإعجاب. ولم يكن متطلعاً إلى حياة أفضل، ولم يكن يَنْشُد أي شيء. لقد أحبّ زوجته، وكان أمله أن يقدم لجوزفين بليار منظوراً إنسانياً مختلفاً عما تعودته.

«ما من أحد يتأمّل خواطرك نيابة عنك عندما تضع رأسك على الوسادة في الليل» كان ذلك تعبيراً حزيناً اعتاد أوستن أن يخاطب به نفسه، وكذلك عندما يحادث النسوة القلائل اللواتي عرفهن منذ زواجه، ومنهنّ بربارة. وقد كان على استعداد لاستهلال مناقشة صريحة من هذا النوع عندما سألته جوزفين عن نفسه.

لكن الأمر لم يطرح للحوار، فهي لم تسأله عن خواطره، أو عن نفسه بأيّ شكل من الأشكال، كما أنها لم تتحدّث عن نفسها، وإنّما تحدّثت عن عملها، وعن ابنها، ليو، وعن زوجها، وعن أصدقائهما. وكان قد أخبرها بأنه متزوّج، وأبلغها بعمره، وبأنّه التحق بجامعة إلينوي، ونشأ في مدينة بيوريا الصغيرة. ولكن بدا من الجميل لها ألاّ تعرف أكثر من ذلك، لقد كانت لطيفة تماماً، وبدا أنها تميل إليه، ولكنها لم تكن شديدة الاستجابة، وهو ما أحْسَبُه أمراً غير عادي. فقد بدا أنّ أموراً جدِّية كثيرة تدور في ذهنها، وأنها تأخذ الحياة مأخذ الجِدّ، وهي سِمة كان أوستن يحبها. وفي حقيقة الأمر فإنّ هذه السمَة جعلتها جذابة بالنسبة له على نحو لم تَبْدُ عليه في البداية، عندما كان يفكر فقط في مظهرها، ويتساءل: هل يريد مضاجعتها.

ولكن عندما كانا يمضيان إلى سيارتها في الشارع الجانبي. الذي تألّقت في نهايته أضواء جار دي لي وستراسبورج بوليفار الذي كان في ذراعه واجتذبته إليها، وأسندت وجنتها إلى كتفه، وقالت:

– الأمر بأسره يبدو محيراً بالنسبة لي.

وتساءل أوستن في قرارة نفسه: ما الذي يبدو بأسره محيراً؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليس هو، فهو ليس محيراً، وهذا أمر جميل في ظل هذه الظروف. فهناك الكثير من الحيرة في حياتها: زوج غائب، طفل في رعايتها، مواصلة الحياة وحيدة. إن في ذلك ما يكفي. ورغم ذلك، فقد أبعد ذراعه عن قبضتها، ومدّها حول كتفها واجتذبها إليه حتى وصلا إلى سيارتها الأوبل الصغيرة، واستغلاها حيث توقف كلامهما.

وعندما وصلا إلى الفندق، فندقه، وهو دير سابق، له حديقة في فنائه تحيط بها الأسوار، على بعد كتلتين من المباني من ملتقى السان جرمان وشارع رين، أوقفت السيارة وجلست متطلعة إلى الأمام، كأنها تنتظر منه الترجُّل. لم يأت أحدهما على ذكر لقاء آخر، وكان من المقرّر أن يغادر باريس خلال يومين.

جلس أوستن في الظلام دون أن يتفوّه بكلمة. كان مخفرُ للشرطة يحتلّ الركن التالي في الشارع الغارق في الظلال. وقد توقّفت سيارة شرطة وأنوارها تشتعل وتنطفئ، والعديد من رجال الشرطة في أزياء رسمية ذات أحزمة من طراز سام براون المتوهجة البياض، يقتادون صفاً من الرجال المصفدين بالأغلال إلى داخل المخفر، وقد انحنت رؤوسهم جميعاً كمن يسألون التوبة والمغفرة. كان ذلك في شهر ابريل وسطح الشارع يتألّق في هواء الربيع الرطب.

كانت تلك، بالطبع، هي اللحظة التي يتعيّن عليه فيها أن يطلب منها الدخول معه، إذا ما كان لشيء من هذا القبيل أن يحدث على الاطلاق. ولكن كان من الجلي أنّ هذا هو أبعد الاحتمالات عن الوقوع، وقد عرفا كلاهما ذلك. وبغض النظر عن إقرارهما بذلك، في دخيلة أنفُسهما، فإنّ أوستن لم يفكّر فيه بشكل حقيقي. وعلى الرغم من أنّه أراد القيام بشيء طيّب حقاً، شيء غير عادي يدخل السرور على نفسها، ويجعلهما معاً يعرفان أن حدثاً مختلفاً عن المألوف قليلاً قد وقع الليلة – حدثاً يمكنهما معاً أن يحسا الانتعاش حياله، عندما ينفرد كلّ منهما بنفسه في فراشه، حتى وإن لم يكن الكثير قد وقع، في حقيقة الأمر.

فكّر مليّاً في ما يمكن أن يكون عليه ذلك الأمر غير العادي، الأمر الذي تقدّمه لامرأة إذا لم تضاجعها. إيماءة. كلمة. ماذا؟

إقتيد كل السجناء في نهاية المطاف إلى المخفر، وعاد الضباط إلى سيارتهم ومضوا بها مباشرة في شارع ميزير، حيث كان أوستن وجوزفين بليار جالسين في الظلام وقد لفّهما الصمت. كان من الجلي أن تجلس منتظرة ترجلُّه من السيارة، وكان في حيرة من أمره حول ما يمكن القيام به. وعلى الرغم من أنها كانت لحظة ابتهج بها، فإنّها كانت اللحظة الرائعة التي تسبق الإقدام على أيّ شيء عندما يبدو كلّ شيء محتملاً قبل أن تنعطف الحياة في هذا الاتجاه، لحظة مهمّة وعجيبة وحافلة بالعذاب النابع من إقصاء ما تَنْشُده النفس وتَقْريبِه، لحظة جديرة بالإبقاء عليها، وقد عرف أنها تعرف ذلك مثلما يعرفه هو، وأرادت، هي، لهذه اللحظة أن تدوم بقدر ما أراد هو ذلك.

جلس أوستن ويداه في حجره، يساوره شعور بأنه كبير الحجم ومزعج الحضور داخل السيارة الصغيرة، وراح يصغي إلى صوت تنفّسه، مدركاً أنّه على حافة ما كان يأمل أن يكون الإيماءة الصائبة – بل الأكثر صواباً – التي يتعيّن القيام بها. لم تكن قد تحرّكت من موضعها، والسيارة جاثمة في مكانها وأنوارها الأمامية تَسْطَع دونما تألّق في الشارع الخاوي، وأجهزة لوحة القيادة تحيل الهواء داخلها إلى اللون الأخضر الخفيف.

مدّ أوستن على حين غرة يده – أو هكذا أحسّ أنّه يفعل – عبر الفراغ بينهما، ورفع يد جوزفين الصغيرة، اللدنة، الدافئة، عن المقود وأمسكها بين يديه الكبيرتين الدافئتين بالقدر نفسه كأنهما شطيرة، على الرغم من أن ذلك جرى أيضاً بطريقة توحي بأنّه يحميها، وأنه سوف يحميها، ويحرسها من ضرر لم يتحدّد اسمه بعد، أو من نوازعها الخفية، وإن كانت الحماية الفورية هي حمايتها من نفسه، لأنّه أدرك أنّ تردّدها، أكثرَ من تردّده، هو الذي أبقاهما منفصلين الآن، وحال بينهما وبين إيقاف السيارة وقضاء الليل أحدهما بين ذراعي الآخر.

اعتصر يدها، ثم خفّف الضغط عنها.

– أود أن أجعلك سعيدة بشكل من الأشكال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالها أوستن بصوت يوحي بالإخلاص، ثم انتظر، فلم تقل جوزفين شيئاً. لم تحرّك يدها، لكنها لم ترد كذلك. بدا الأمر كما لو أنّ ما قاله لم يَعْنِ أي شيء، أو ربما أنها لم تكن مصغية إليه.

– إنه أمر من طبيعة البشر فحسب.

قالها أوستن، وكأنّها قالت شيئاً في معرض الردّ، كأنّها قالت: «لماذا؟» أو «لا تحاول!» أو «ليس بمقدورك» أو «فات الأوان».

– ماذا؟

قالتها جوزفين، ناظرة إليه للمرّة الأولى منذ توقفهما، أضافت:

– إنّه ماذا؟

لم تكن قد فهمت ما قَصَدَ.

قال أوستن، ممسكاً بيدها الدافئة، التي لا يكاد يكون لها ثقل:

– إنه أمر من طبيعة البشر فحسب أن نريد إسعاد شخصٍ مّا. إنّني أميل إليك كثيراً، وأنت تعلمين ذلك.

كانت تلك هي الكلمات المناسبة تماماً على الرغم من أنها بدت عادية.

قالت جوزفين ببرود:

–نعم، طيب، من أجل ماذا؟ إنك متزوج، لديك زوجة، وتقيم بعيداً للغاية، وسترحل في غضون يومين أو ثلاثة أيام، لست أدري بالضبط. وهكذا، من أجل ماذا تميل إليّ؟

بدا محياها مستعصياً على النفاذ إلى ما وراءه، كأنّها تحادث سائق سيّارة أجرة قال لتوّه شيئاً مألوفاً لديها على نحو غير لائق. تركت يدها في يده، لكنها نحت بناظريها متطلّعة إلى الأمام مباشرة.

عندئذ أراد أوستن الحديث مجدّداً. أراد أن يقول شيئاً صحيحاً تماماً على النحو – متحدّثاً به إلى هذا الفراغ الجديد، الذي فتحت آفاقه بينهما، كلمات ليس بمقدور أحد أن يخطّط بقولها، أو حتى أن

يعرفها مسبقاً، ولكنها شيء يتوافق مع ما قالته ويسلم بإذعانه له، ومع ذلك يتيح المجال للحظة يدخلان خلالها أرضاً جديدة لم ترسم معالمها.

وعلى الرغم من أن الشيء الوحيد الذي استطاع أوستن قوله، وليست لديه فكرة يعلّل بها: لِمَ كانت هذه هي الكلمات الوحيدة التي خطرت له، حيث أنها بدت بلهاء ومدمّرة، الشيء الوحيد الذي استطاع قوله هو: «لقد دفع الناس ثمناً غالياً لارتباطهم بي» وكانت تلك على وجه القطع كلمات بعيدة عن أن تكون ملائمة؛ حيث أنها بقدر ما يعلم لم تكن صحيحة على وجه خاص. وحتى لو أنها كذلك فإنّها كانت موحية بالتباهي وكانت ميلودرامية للغاية، بحيث يمكن أن تدفع جوزفين أو أي شخص آخر إلى الإغراق في الضحك.

ومع ذلك، كان بمقدوره أن يقول ذلك، وأن ينهي، في التو، كل ما بينهما وينساه، وهو ما يمكن أن يكون مصدراً للشعور بالخلاص. وكل ما في الأمر أنّ الخلاص لم يكن ما يريده. وإنما يريد أن يمضي شيءٌ مّا إلى الأمام بينهما، شيء محدّد، وواقعي، ومتوافق مع حقائق حياتهما، أن يتقدّم إلى تلك المنطقة التي لا يبدو في هذه اللحظة أنّ ثمّة ما هو ممكن فيها.

ترك أوستن يد جوزفين على مهل، ثم مدّ يديه كلتيهما إلى وجهها، وأداره نحوه، ومال عبر الفراغ بينهما، وقال قبيل تقبيله لها مباشرة:

– لسوف أقبّلك على الأقل، إنني أحس أنني مخوّل القيام بذلك، ولسوف أفعل.

لم تقاومه جوزفين بليار على الإطلاق، على الرغم من أنها لم تشاركه بأي شكل من الأشكال. كان محيّاها لدناً ومطاوعاً، وكانت لها شفتان عاديتان بعيدتان تماماً عن الامتلاء، وعندما الصق أوستن شفتيه بهما، لم تتحرّك نحوه، وإنّما أسلمت نفسها لقبلته، وأدرك أوستن ذلك تواً وعلى نحو قاس. هذا هو ما كان يحدث: كان يفرض نفسه فرضاً على هذه المرأة، وتسرب إلى نفسه شعور، فيما هو يزيد من إلصاق شفتيه بشفتيها، بأنه واهمٌ، وأحمق، ومثير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للشفقة، أي ينتمي إلى ذلك النوع من الرجال الذي من شأنه أن يسخر منه لو أنه سمع نفسه وهو يوصف باستخدام هذه الحقائق وحدها كدليل يطرح في هذا الصدد. كان شعوراً فظيعاً، كأنه أوغل في العمر، وأحسّ كأن أعماقه أصابها الخواء، وكأنّ ذراعيه تصبحان ثقيلتين كهراوتين. أراد أن يختفي من مقعد السيارة هذا، ولا يتذكّر أبداً أياً من الأمور البلهاء التي كان يفكّر فيها قبل لحظة واحدة فحسب. كانت تلك هي الخطوة الدائمة الأولى، عندما انتهت الإمكانية، وكانت خطوة في الاتجاه الخاطئ، أسوأ خطة ممكنة. كانت مثيرة للسخرية.

ورغم ذلك، فإنّه قبل أن يستطيع إبعاد شفتيه، أدرك أنّ جوزفين بليار تقول شيئاً، وتتحدّث بشفتيها الملتصقتين بشفتيه، على نحو خافت، وأنّها بعدم مقاومتها له كانت في حقيقة الأمر تقبّله، ووجهها يكاد، دونما وعي، يستسلم لمقصد أوستن. وما كانت تقوله، طوال تقبيله لشفتيها الرفيعتين هو، بهمس وبصورة حالمة تقريباً:

– لا. لا. لا. لا. من فضلك. لا أستطيع. لا أستطيع. لا. لا.

وعلى الرغم من أنها لم تتوقف، فإنّ «لا» لم تكن ما قصدته على وجه الدقّة. وتركت شفتيها ينفرجان قليلاً في إيماءة إدراك لما يجري. وبعد لحظة، لحظة طويلة معلّقة، ابتعدَ أوستن قليلاً عن شفتيها، وجلس في مقدعه، والتقط نفساً عميقاً، ووضع يديه مجدّداً في حجره، وترك القبلة تملأ الفراغ بينهما الذي كان يأمل على نحو من الأنحاء أن يملأه بالكلمات. وكان ذلك أقل الأشياء توقعاً وجاذبية من بين ما يمكن أن يخرج من رحاب أمنيته أن يقوم بالأمر المناسب.

لم تلتقط نفساً يمكن أن يتناهى صوته إلى الأسماع، وكلّ ما هنالك أنها جلست على نحو ما كانت تجلس قبل أن يقبلها، ولم تتحدّث أو يَبْدُ عليها أن في ذهنها ما تقوله. كانت الأمور في غالبها على وضعها قبل أن يقبلها، وكل ما حدث هو أنّه قبّلها – قبلا بعضهما – وقد أحدث ذلك فارقاً هائلاً.

قال أوستن بحسم بالغ:

– أودّ أن أراك غداً.

– نعم، ليكن.

قالتها جوزفين، على نحو يكاد يكون حزيناً، وكأنها لم تستطع إلاّ الموافقة.

عندئذ شعر بالرضا عن أنّه لم يعد هناك شيء آخر يقال. كان الأمر كما ينبغي أن يكون عليه. ما من شيء آخر يمكن أن يمضي بعيداً عن الصواب.

– طاب مساؤك.

قالها أوستن بالحسم ذاته كالسابق. وفتح السيارة، ودفع بنفسه خارجها إلى الشارع.

– ليكن.

قالتها، ولم تنظر خارج باب السيارة، على الرغم من انه قد انحنى على الفتحة، وتتطلّع إليها. كانت يداها على المقود، وراحت تحدّق إلى الأمام، دون أن يبدو عليها اختلاف حقاً عما كانت عليه عندما توقفت لتدعه يترجّل من السيارة قبل خمس دقائق، ربّما كانت تعبة قليلاً.

أراد أن يقول كلمة طيبة أخرى تعزّز توازن مشاعرها في تلك اللحظة، وإن لم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفية هذا التوازن. كانت مبهمة بالنسبة له، مبهمة تماماً، ولم يكن الأمر مثيراً للاهتمام إلى حد بعيد. وكل ما استطاع التفكير في قوله كان تافهاً، تماماً كما كان آخر شيء قاله مدمراً: «ما من اثنين يريان الملح الطبيعي ذاته» وبالفعل كانت تلك هي الكلمات الفظيعة التي فكّر فيها، على الرغم من أنّه لم يقلها. ابتسم مطلاً عليها، ونصب قامته، وأغلق الباب بإحكام، وابتعد إلى الوراء على مهل، لكي تستطيع جوزفين الدوران والانطلاق في شارع ميزير. وتابعها وهي تنطلق مبتعدة، ولكن كان بمقدوره القول بأنها لم تتطلّع إليه في مرآة الرؤية الخلفية. بدا الأمر كما لو انه، في لحظة، لم يوجد على الاطلاق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٢ -

اتضح أنّ ما كان أوستن يأمل أنه شارع فوجيرار، الذي يفضي إلى المنطقة المحيطة بشقّة جوزفين، ويمرّ بها، ما هو إلا شارع سان جاك. لقد أوغل في المسير أكثر ممّا ينبغي، وأصبح على مقربة من كلية الطب، حيث لم تكن هناك إلاّ واجهات محال خالية من الأنوار تضمّ مراجع طبيّة عتيقة، وتحفاً مترية، عفا عليها الدهر.

لم تكن معرفته بباريس معرفة جيّدة، فلا إلمام له إلاّ ببضعة فنادق نزل بها، وقلّة من المطاعم لا يرغب في تناول الطعّام بها مجدّداً. ولم يكن يدري ما الفارق بين هذا التقاطع وذاك أو في أي اتجاه يقع مَعْلَمٌ مّا بالنسبة لغيره من المعالم، أو كيف يستخدم المترو، أو حتى كيف يغادر المدينة باستثناء أن يستقلّ طائرة منطلقة فيها. وبدت كلّ الشوارع الكبرى متشابهة، وتتداخل معاً عبر زوايا مثيرة للحيرة، وبدت كلّ المعالم الشهيرة في مواضع غير متوقعة عندما تتراءى للعيان عبر أسقف المباني. وفي اليومين اللذين قضاهما حتى الآن في باريس - بعد مغادرة الوطن على عجل وركوب الطائرة إلى مطار أورلي - حاول على الأقلّ أن يتذكّر الاتجاه الذي تصبح أرقام المباني فيه أكبر في جادة السان جرمان، ولكنه لم يستطع المضي بالأمور قُدُماً، بل لم يكن في مقدوره على الدوام العثور على هذه الجادة عندما يريد ذلك.

في شارع سان جاك أطلّ إلى حيث توقع أن يكون نهر السين وجسر البتي بو، وها هما يمتدّان أمامه. كان اليوم ربيعياً دافئاً،

والأرصفة على امتداد ضفّتي النهر تزدحم بالسياح الذين يملأون حوانيت اللوحات، وينظرون بأفواه فاغرة إلى الكاتدرائية الهائلة على الجانب الآخر.

بدا المشهد، للحظة من اللحظات، في شارع سان جاك مشهداً مألوفاً: واجهة صيدلية تَذَكَّرها، ومقهى ذو اسم مميّز، أورلوج. تطلع إلى الوراء في الشارع من حيث أقبل، وأدرك أنه على بعد نصف كتلة مبان فقط من الفندق الصغير، الذي نزل فيه ذات مرّة مع بربارة. إنه فندق «تور دي نوتردام» الذي يَعِد بإطلالة على الكاتدرائية العظيمة. ولكن مثل هذه الاطلالة كانت مستحيلة منه. ،كان الباكستانيون يديرونه، وغرفه هي، من الصِغَر، بحيث أنّه لم يكن في وسعك أن تفتح حقيبتك وتصل إلى النافذة في آن. وقد أحضر بربارة معه في رحلة عمل – وكان ذلك قبل أربع سنوات من الآن – وقامت بالتسوّق وزيارة المتاحف وتناول طعام الغداء على «كواي ديلاتورناي» بينما كان يزور عملاءه. وقد بقيا خارج الغرفة ما استطاعا، إلى أن ألقاهما التعب في الفراش أمام التلفزيون الفرنسي الذي لا سبيل إلى متابعة برامجه وتفهّمها، والذي جلب النعاس بالفعل إلى عيونهما.

الآن يتذكّر أوستن بوضوح بالغ، وهو يقف على الرصيف المزدحم وهو في طريقه إلى شقّة جوزفين بليار، أنه وبربارة غادرا باريس في أوّل ابريل، مستقلّين طائرة في رحلة عودة مباشرة إلى شيكاغو. وكل ما هنالك أنهما عندما أفلحا بعد عناء في إخراج أمتعتهما من الغرفة وزجا بأنفسهما في المصعد الصغير الذي يخلو من نسمة هواء، وخرجا إلى بهو الفندق، متأهبّين لدفع حسابهما والرحيل، وقد لاحا بمظهر اللاجئين الخارجين من غمار حرب، نظر إليهما الكاتب الباكستاني الذي يتحدّث بإنجليزية هشة عبر مكتب الاستقبال بطريقة يشوبها الانفعال وقال لهما:

– آه، يا سيد أوستن! ألم تسمع الأخبار السيّئة؟ إنني آسف!

قال أوستن:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– ماذا هناك؟ أي أخبار سيّئة؟

تطلّع إلى بربارة ممسكاً بحقيبة ملابس وبصندوق قبعة، وهو يشعر بأنّه لا يرغب الآن في سماع أي أخبار سيّئة.

قال الكاتب، وقد بدت عليه الحدّية البالغة:

– هناك إضراب فظيع للغاية. والمطار مغلق تماماً. وليس بمقدور أحد مغادرة باريس اليوم، ويؤسفني القول إنّنا حجزنا غرفتكما لنزيل آخر، نزيل ياباني، إنني آسف للغاية.

وقف أوستن وسْط حقائبه، ملتقطاً أنفاسه وسط هواء ملوّث بمشاعر الخيبة والإحباط والغضب وأيقن أنّه من غير المجدي التعبير عنها. وحدّق من نافذة الفندق في الشارع، فلاحت له السماء ملبّدة بالغيوم، والريح ثلجية قليلاً، وكانت بربارة وراءه، فسمعها تخاطب نفسها وتخاطبه على السواء:

– أوه، طيب، سنفعل شيئاً في هذا الصدد، سنجد مكاناً آخر، ليس الأمر بالسيِّئ للغاية، وربما خضنا مغامرة.

نظر أوستن إلى كاتب الفندق، وكان رجلاً ضئيل الحجم، بني اللون، مرجّل الشعر، يرتدي سترة قطنية بيضاء، يجلس أمام القمطر المسكو بالمرمر ويبتسم. عرف أوستن أن هذا كلّه سواء بالنسبة له، أنهما ليس لهما مكان يمضيان إليه، وانهما سئما باريس، وانهما جلبا متاعاً أكثر من اللازم، وابتاعا أكثر مما يلزم ليمضيا به إلى بلدهما، وانهما لم ينالا ما يكفي من النوم كلّ ليلة، وأنّ الطقس يتغيّر باتجاه المزيد من البرودة، وأنّ نقودهما قد نفدت، وضاقا ذرعاً بالفرنسيين المتكبرين. ما من شيء من ذلك يهمّ هذا الرجل من بعض الجوانب. وأحسّ أوستن أنّ الأمر ربما أسعده بما يكفي لرفعه إلى الابتسام.

قال أوستن للرجل الضئيل الجرم من شبه القارّة الهندية:

– ما هو الطريف في الأمر؟ لِمَ يشكّل حظّي التعس مصدراً لمثل هذه التسلية؟

الآن سيغدو هذا الرجل بؤرة ينصب عليها حنقه. ولم يستطع كبح جماح نفسه، فالغضب لنا يجعل الأمور أسوأ ممّا هي عليه بالفعل.

– الا يهمّك أنّنا نزيلان في هذا الفندق، وأنّا في وضع سيِّئ هنا؟

تناهى إلى سمعه ما عرف أنّه صوت يحمل نبرة المناشدة.

– كذبة إبريل!

قالها الكاتب، وانطلق في ضحكة صغيرة مقرقرة. وأضاف وهو يشعر الآن بالرضا عن نفسه، أكثر مما كان يشعر به عندما حدث أوستن بالكذبة:

– ها، ها، ها، ها، ها، ها. إنها نكتة فحسب، يا سيّدي! المطار على ما يرام تماماً، وهو مفتوح، وبمقدورك المغادرة، وليست هناك متاعب. على ما يرام. إنّها نكتة فحسب، رحلة سعيدة، يا سيد أوستن، رحلة سعيدة!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٣ -

طوال اليومين اللذين أعقبا تركها له واقفاً في الشارع في منتصف الليل، بعد أن قبّلها للمرّة الأولى، وأحسّ أنّه فعل شيئاً على الوجه الصحيح تماماً، قابلها كثيراً. وكانت لديه خطط للمضي إلى بروكسل، ثم إلى أمستردام، ومن هناك يستقلّ الطائرة إلى شيكاغو ويعود إلى داره. ولكن، في صباح اليوم التالي، بعث برسائل إلى عملائه وإلى المكتب يشكو فيها من «متاعب صحيّة» يقول إنها على نحو لا سبيل إلى تفسيره، ويقول إنّها «عاودت الظهور» على الرغم من أنّه يحسّ أنها ليست بـ«الشيء الخطير»، ولسوف ينجز أعماله بالفاكس عندما يعود إلى العطف في الأسبوع المقبل، وأبلغ بربارة بأنّه قرّر البقاء في باريس بضعة أيّام أخرى، لمجرّد الاسترخاء، والقيام بأشياء لم يتح له الوقت قط للقيام بها من قبل. وقال إنّه ربما أتيح له أن يزور دار مونيه، وأن يتجوّل في الشوار كالسياح، ويستأجر سيارة، ويمضي بها إلى ضاحية فونيتنبلو.

قرّر أن يقضي مع جوزفين بليار كلّ دقيقة يمكنه قضاؤها، ولم يفكّر للحظة أنّه أحبّها، أو أنّ بقاءهما معاً سيفضي به أو بها إلى أيّ شيء مهم، فقد كان متزوجاً، وليس لديه ما يعطيها إيّاه، وكان الانسياق للوهم مع مثل هذا الأمر لا يعني إلاّ جلب المتاعب، ذلك النوع من المتاعب الذي تنأى عنه وأنت في عمر أصغر، ولكنك عندما تكون أكبر تتجاهله عند المغامرة، وقد شعر بأنّ التردّد في مواجهة المتاعب ربما عُدّ من الفضائل.

ولكنه، باستثناء ذلك، قد أنجز كل ما في وسعه إنجازه. مضيا معاً لمشاهدة أحد الأفلام، وانطلقا إلى أحد المتاحف، وزارا كاتدرائية نوتردام والباليه رويال، ومضيا معاً يسيران في الشوارع الضيّقة في فابور سان جرمان. لقد تطلّعا إلى واجهات المحال، وتصرّفا كالعشاق، وتلامسا، وسمحت له بأن يمسك يدها، وتبادلا نظرات العارفين. عرف ما الذي يجعلها تضحك، وأصغى بانتباه إلى مواضع فخارها الصغيرة، وظلّت، حيثما كانت، تبدو غير مهتمّة، ولكنها راغبة وعلى استعداد، كأنّما الأمر كلّه فكرته وواجبها، مجرّد واجب فحسب. لقد أحبّته حُبّاً مدهشاً. وأحسّ أنّ هذا التردّد ذاته عندها شيء قاهر، وجذّاب، ودفع به إلى السعي وراءها على نحو جعله يعجب بزخم اندفاعه. صحبها لتناول طعام العشاء في مطعمين فاخرين، ومضى معها إلى شقتها، وقابل ابنها، والمرأة الريفية التي كانت تدفع لها أجراً مقابل العناية به خلال أيام الأسبوع عدا نهايته، ورأى المكان الذي تعيش فيه وتنام وتأكل. وحدّق مطلاً من نوافذ شقّتها في حدائق اللوكسمبرج وفي شوارع الحيّ التي يغمرها السلام، فعرف حياتها، التي وجد أنّه فضولي لمعرفتها، والتي جعلته عندما أشبع هذا الفضول يحس أنّه حقّق شيئاً لم يكن من اليسير ولا العادي القيام به.

لم تبلغه بما يفوق كثيراً ما حدّثته به عن نفسها، ولم تسأله عن نفسه، كأنّما حياته لا تعنيها، أو كأنها لا وجود لها. وأبلغته بأنها زارت أميركا في وقت من الأوقات والتقت موسيقياً في كاليفورنيا، وقرّرت أن تقيم معه في داره الخشبية الصغيرة قرب الشاطئ في سانتا كروز. وكان ذلك في أوائل السبعينيات. وكانت في سن المراهقة. وكلّ ما في الأمر - وكان ذلك بعد أربعة أشهر - أنّها استيقظت ذات صباح على حَشِيَّة على الأرض، ووجدت نفسها ملتحفة سجادة من جلد بقرة مدبوغ، وانبعثت واقفة، وحزمت حقيبتها، وغادرت المكان.

- كان ذلك أكثر كثيراً ممّا ينبغي، فليس بوسعك أن تحيا طويلاً في أرض لا تنتمي إليها. أليس هذا صحيحاً؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالتها جوزفين، وهي جالسة أمام نافذة شقتها، مطلّة على الغسق والشوارع، حيث الأطفال يلعبون كرة القدم. وقالت إن الموسيقيّ قد انزعج وغضب، لكنها عادت إلى فرنسا وإلى بيت أبويها. ونظرت إليه، ورفعت كتفيها. كان يجلس على مقعد، ويشرب قدحاً من النبيذ الأحمر، متأمّلاً الأسقف، مستمتعاً بالكيفية التي كان الضوء الضارب إلى الصفرة ينير بها الحلى المعمارية للمباني المقابلة والبادية للعيان من موضعه. وانسابت موسيقى الجاز ناعمة من جهاز استريو، عزفاً منفرداً على الساكْسُفون،، مترعاً بالتموّجات اللحنية. قالت جوزفين:

– ذلك صحيح. أليس كذلك؟ لا يمكنك هذا.

– صحيح تماماً.

قالها أوستن، لقد نشأ في بيوريا بولاية إلينوي، وهو الآن يقيم في الجانب الشمالي الغربي من شيكاغو، وقد التحق بولاية الجامعة، وأحسّ أنّه على صواب تماماً، على الرغم من أنّه لم يرَ ما يجافي الصواب في كونه هنا في هذه اللحظة، مستمتعاً بِسَنَا الشمس وهو يَحْبُو تدريجياً، ثم يختفي من فوق أَسْقُف الدور، التي كان في وسعه أن يلمحها من غرف شقّة هذه المرأة. لقد بدا ذلك أمراً مسموحاً به، ولاح الكمال بعينه.

حدّثته عن زوجها. وكانت صورته معلّقة على الجدار في غرفة ليو. كان يهودياً له وجه ملغد، وبشرة سمراء، وشارب أسود كثّ، جعله يبدو كما لو كان أرمنياً، ومثيراً للخيبة بشكل من الأشكال، فيما راح أوستن يحدّث به نفسه. لقد تخيّل برنار باعتباره شخصاً من طراز لُوِي جوردان، أنيقاً، ناعم البشرة، يعاني من سمة قاتلة، هي الشعور بالضجر. أمّا الرجل الفعلي فقد بدا ما هو عليه بالفعل، رجلاً يكتب الأغنيات والأناشيد المقفاة للتلفزيون الفرنسي.

قالت جوزفين إن قصّة الحب التي عاشتها، خارج إطار زواجها، قد برهنت لها أنها لم تحب زوجها، على الرغم من أنّها ربما تكون قد أحبّته في يوم من الأيام، وأن معاشرة إنسان لا نحبه، إذا كانت

أمراً يستطيعه بعض الناس، فإنها، هي، لا تستطيعه. وتطلّعت إلى أوستن مجدّداً، وكأنّها تؤكد على ما قالته. ولم يكن ذلك، بالطبع، هو النحو الذي أوضحت به مشاعرها نحو زوجها أوّل الأمر، عندما قالت إنها تشعر بأنّ في مقدورها أن تستأنف حياتها معه بعد أن انتهت قصّة الحبّ التي عاشتها. إلاّ أنّ زوجها قد هجر شقّتها. وحدث أوستن نفسه بأنّ هذا هو ما تحسّه الآن، وأنّ الحقيقة تكمن يقيناً في موضع وسيط. وعلى أيّ حال، فالأمر لا يهمّه. قالت إنّ زوجها قد أعطاها القليل من المال، ولم ير ولده إلا على نحو متباعد، وشوهد مع صديقة جديدة، المانية الجنسية، وألّف، بالطبع، كتاباً فظيعاً يقرأه كلّ معارفها وذلك ما سبّب لها ألماً وحرجاً هائلاً.

قالت، وهي تهزّ رأسها كأنما تنزع الفكرة نفسها من ذهنها:

– ولكن ما الذي أستطيع فِعْله؟ نعم، إنني أحيا حياتي الآن، هنا، مع ولدي. وأمامي في خمسة وعشرون عاماً أخرى من العمل ثم ينتهي أمري.

– ربما طَرَأَ شيء أفضل،

قالها أوستن، ولم يَدْرِ ما عساه يكون هذا الشيء، ولكنه كره أن تكون على هذا القدر الكبير من التشاؤم. وسيطر عليه شعور جعله يظن أنها كانت تلقي عليه اللوم، وهو ما ظنّ أنّه سمة فرنسية للغاية، وحدّث نفسه بأنّ من شأن وجهة نظر أمريكية أكثر تمسّكاً بالأمل أن تقدم يد العون.

– ماذا يمكن أن يكون؟ ما الذي عساه أن يكون أفضل؟

قالتها جوزفين، وتطلّعت إليه لا بمرارة تامّة، ولكن بعجز، ثم أضافت:

– ما الذي سيحدث؟ قل لي، إنّني أريد أن أعرف!

وضع أوستن قدح نبيذه بعناية على الأرضية المصقولة، وانبعث ناهضاً من مقعده، ومضى إلى حيث النافذة المفتوحة، حيث تجلس جوزفين، والتي كان الشارع من تحتها يلتفّ بظلام متفاوت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدرجات. كان هناك صوت ارتطام كرة القدم وهي ماتزال تركل مراراً وتكراراً في اتجاه الحائط بلا هدف، وراء ذلك تناهى صوت سيّارة تمضي عبر كتلة المباني. لفّ أوستن ذراعيه حول ذراعيها، وألصق شفتيه بوجنتها الباردة، واجتذبها نحوه بإحكام.

– ربما أتى من يحبك،

قالها أوستن وكان يقدم لها لوناً من التشجيع، ويدرك أنها تعرف ذلك، وأنها ستتلقاه بروح طيّبة. قال:

– لن يكون من الصعب الوقوع في حبّك. ليس صعباً على الإطلاق، بل في الحقيقة سيكون ذلك سهلاً للغاية.

أسلمت جوزفين نفسها للجذب، للاحتواء. حدّث أوستن نفسه بأنه أمر محفوف بالمخاطر أن تكون في موضعها، في النافذة، مع رجل يعانقها. كان في وسعه أن يحسّ الهواء الخارجي البارد على ظهر كفّيه وعلى وجهه، وجانب منه خارجه، والجانب الآخر ينسلّ إلى أعماقه. كان ذلك مبهماً للغاية، على الرغم من أنّ جوزفين لم تلفّ ذراعيها حوله، ولم تردّ له لمسته على أي نحو يجعل الأمر مختلفاً، وكل ما هنالك أنها تركته يعانقها، وكأنما إدخال السرور على نفسه كان أمراً يسيراً، ولا تكترث به على الإطلاق.

في تلك الليلة، صحبها لتناول طعام العشاء في «كلوزيرى دي ليلا» وهو مطعم كان الكتّاب والفنانون يرتادونه بانتظام في العشرينات، وقد بدا مكاناً باهر الإضاءة، حافلاً بالمرايا، تتردّد الأصوات في جنباته، حيث احتسيا الشمبانيا، وأمسك أحدهما بيدي الآخر، ولكنهما لم يتحدثا كثيراً، وبدا أن موضوعات الحديث لديهما قد نفدت. ومن شأن أكثر الأمور تلقائية بينهما، عقب ذلك، أن تكون موضوعات مشتركة يندرج بعض الحديث عن المستقبل في صميمها. ولكن أوستن كان سيغادر باريس في صباح اليوم التالي، ولم يَبْدُ أنّ هذه الموضوعات المستقبلية تثير اهتمام أيّ منهما، على الرغم من أنه كان في وسعه أن يستشعر اجتذاب هذه الموضوعات لهما، وبإمكانه أن يتصور أنّ تحت سطح الحقائق الصلبة، يمكن أن

يكون لهما مستقبل. ومن المؤكّد أنّه كان من الممكن، في ظلّ ظروف مختلفة، أفضل من الظرف الحالي، أن يكونا عاشقين، وأن يشرعا، على الفور، في قضاء المزيد من الوقت معاً، وأن يدركا ما يتعيّن ادراكه فيما بينهما. واستشعر أوستن دافعاً قويّاً يحدوه إلى أن يقول لها هذه الأشياء ذاتها كلها، فيما هما يجلسان في صمت عاكفين على احتساء أقداحهما المترعة بالشمبانيا، وأن يمضي قُدُماً، فيطرح من جانبه على المائدة هذا القدر من الأفكار، ويرى ما الذي يكون ردّ فعلها عليه. ولكن المطعم كان أكثر صخباً من أن يسمح بذلك. وقد بدأ في قول هذه الكلمات ذات مرّة، ولكنها بدت كأنها كلمات قيلت بصوت أكثر ارتفاعاً مما ينبغي، ولم تكن هذه الكلمات من ذلك النوع، بل كانت كلمات مهمّة، وبحاجة إلى أن تقال بتقدير واحترام، بل وبإجلال، مع ما يندرج في صميمها من شعور بالضياع.

ورغم ذلك، ظلّت هذه الكلمات في ذهنه، فيما هي تقود السيّارة، قاطعة المسافة القصيرة في طريق العودة إلى شارع ميزير، والركن الذي تركته فيه خلال الليلة الأولى. وبدا أن الكلمات قد فاتتها لحظتها المناسبة، وكانت بحاجة إلى سياق آخر، إلى إطار أكثر جوهرية. ومن شأن نطقها في الظلام، داخل سيارة أوبل عتيقة ومحرّكها يدور، في لحظة الوداع، أن يضفي عليها ثقلاً غير مقصود، لأنها، على الرغم من كل الحزن الكامن فيها، تكون تعبيراً عن التفاؤل.

عندما أوقفت جوزفين السيّارة، والبوّابة المفضية إلى الفندق على بعد خطوات قلائل، أبقت يدها على المقود، وراحت تحدّق أمامها، كما فعلت منذ ليلتين. ولم تقدم له شيئاً، لا كلمة، ولا إيماءة، ولا حتى نظرة. لقد كانت هذه الليلة، عندها، الليلة الأخيرة، الليلة التي تسبق رحيل أوستن إلى شيكاغو، ثم إلى داره وزوجته، دونما عودة أبداً، ودونما معاودة للانطلاق من حيث هما في تلك اللحظة – تلك الليلة كانت تماماً كالليلة الأولى، التي ستنسى جوزفين كل ما يتعلّق بها،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بمجرّد إغلاق باب السيّارة وانطلاق الأضواء الأمامية إلى الشارع الخاوي نحو الدار.

أطلّ أوستن من نافذتها على بوابة الفندق الخشبية ذات الطابع الريفي التي امتدّ وراءها فناء تنمو فيه السرخسيات، وأنيرت مقدّمته، ثم الأبواب الزجاجية المزدوجة، ثم البهو والدرج المنعطف مرّتين وصولاً إلى غرفته الصغيرة. كان ما أراده هو، في حقيقة الأمر أن يصحبها إلى هناك، ويُحكم إغلاق الباب، ويُسدل الستائر، ويتبادلان حبّاً مترعاً بالأسى حتى الصباح، إلى أن يُضطر لاستدعاء سيّارة أجرة ينطلق بها إلى المطار. ولكن القيام بذلك كان مجافياً للصواب، بعد أن قطعا هذا الشوط دونما تعقيد، ودون أن يلحق بأيّ منهما اضطراب أو أذى أكبر. ووقوع الضرر يمكن أن يكون من خلال تورّطها معه، فيما راح، هو، يحدّث نفسه به. كلاهما كان يعرف ذلك، ولم يقتض الأمر إفصاحاً. وعلى أيّ حال، فإنّها لن تفكّر في مضاجعته. فكلمة «لا» عندها تعني «لا». وتلك هي الطريقة الصحيحة في أداء هذه اللعبة.

جلس أوستن: يداه في حجره، والصمت يلفّه. وكانت تلك هي الطريقة التي عرف أنّ هذه اللحظة ستحدث، بصورة حزينةٍ من جانبه، وبصورة فاترة من جانبها. لم يحدث نفسه بأنّه ينبغي أن يمدّ يديه ويلتقط يدها مرّة أخرى، على نحو ما حدث من قبل، فذلك يتحوّل إلى تمثيل إذا فعلته مرّة ثانية. وقد لمسها على هذا النحو مرّات عديدة، بعذوبة، وببراعة، ودونما محاولة القيام بما هو أكثر من ذلك، باستثناء قبلة قصيرة ناعمة. هذه المرّة هي المرّة الأخيرة، سيدعها تمضي وفقاً لرغباتها على وجه الدقّة، وليس وفقاً لرغباته.

راح ينتظر. وحدّث نفسه بأنّ جوزفين بلبار قد تقول شيئاً، شيئاً ساخراً، أو حاذقاً، أو فاتراً، أو عادياً فحسب، شيئاً يكسر قاعدة الصمت الصغيرة التي درجت عليها، وبأنّ بمقدوره عندئذ أن يردّ على ما قالته، وتكون له الكلمة الطيبة الأخيرة، كلمةً تتركهما حائرين، معذّبين، على يقين من أنّ لحظة قصيرة، لكنها مهمّة، لم

تفتهما تماماً. ولكنها لم تتحدّث، كانت مصرّة على كونهما لا يتجاوزان ما يجعلها تفعل أيّ شيء مختلف عمّا تفعله بصورة طبيعية. وعرف أوستن أنه، إذا ترجّل من السيّارة الآن تواً، دونما كلمة وداع، فإنها ستقود السيّارة مبتعدة في طريقها، وربما كان هذا هو السر في أنّ زوجها قد ألّف كتاباً عنها. وراح أوستن يحدّث نفسه بأنّ زوجها، لما قام بذلك، كان يعي أنّه قد حظي باهتمامها.

بدا أنّ جوزفين تنتظر خلو المقعد المجاور لها. تطلّع أوستن إليها في عتمة السيّارة، وبادلته النظرلحظة، لكنها لم تتحدّث. وحدّث أوستن نفسه بأنّ هذا يبعث على الشعور بالضيق، ويبدو أمراً سخيفاً، متّسماً بالطالع الفرنسي المميز، أن يكون المرء موصداً في مواجهة العالم، بعيداً عن الاستعداد لترك لحظة رقيقة ومنطلقة تمنحك الشعور بالسعادة في حين أن السعادة على هذا القدر الكبير من الندرة. لقد أدرك أنّه على حافة الشعور بالغضب، وقولِ شيء آخر والترجّلِ من السيارة والانطلاق بعيداً.

قال، وقد بدا صوته أكثر إيماء بالضيق ممّا أراد:

– اتعلمين أن بمقدورنا أن نكون عاشقين. فالواحد منّا يهتمّ بالآخر، وليس ذلك عندي أمراً ثانوياً، وإنّما هو الحياة الواقعية. إنّك تميلين لي، وكلّ ما أردتُه هو انتهاز فرصة هذا الأمر على نحو يجعلك سعيدة. ويرسم ابتسامة على شفتيه. لا شيء خلاف هذا. لست بحاجة إلى مضاجعتك، فهذا من شأنه أن يسبّب لي من المتاعب ما يسبّبه لك. ولكن هذا ليس سبباً للعجز عن أن يميل أحدنا إلى الآخر

نظر إليها متفرّساً في عتمة السيّارة، وقد بدا ملمحها الجانبي لطيفاً بإزاء الأنوار التي تعلو بوّابة الفندق على الجانب الآخر من الطريق. لقد لزمت الصمت، على الرغم من أنّه حسب أنّه سمع ضحكة خافتة، لا تتجاوز التقاط نفس، افترض أنها قصدت بها أن تعبر عما دار بخلدها حيال ما قاله لتوّه.

– إني آسف حقاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالها أوستن غاضباً، دافعاً بركبتيه باتجاه الباب، تمهيداً للترجّل.

لكن جوزفين وضعت يدها على رسغه، واستبقته، دون أن تنظر إليه، وإنّما تحدّثت باتجاه الزجاج الأمامي البارد، قائلة، وهي تعتصر رسغه:

– إنّني لست من القوّة بما يكفي لهذا.

– بما يكفي لماذا؟

قالها أوستن، هامساً بدوره، وإحدى قدميه على الأرض بالفعل، وإن كان يبادلها النظر في العتمة.

قالت:

– إنّني لست من القوّة بما يكفي ليربطني شيء بك، ليس في الوقت الحالي.

تطلّعت إليه، وقد بدت عيناها نجلاوين رقيقتين، وإحدى يديها تمسك برسغه، والأخرى على حجرها، شبه ملتفة حول نفسها.

قال أوستن، وهو مايزال يبالغ في التأكيد، وإن شعر بالرضا حيال ذلك:

– هل تقصدين أن مشاعرك ليست من القوة بما يكفي، أم أنّك لا تجدين ما يكفي من القوّة في نفسك؟

قالت جوزفين:

– لست أدري، مازال الأمر يحيرني للغاية. إنّني آسفة.

قال أوستن:

– طيّب. ذلك أفضل من لا شيء، على الأقلّ منحتني هذا القدر، وذلك يسعدني.

مدّ يده، واعتصر رسغها، حيث كانت تمسك رسغه بإحكام، ثم ترجّل من السيّارة. وضعت يدها على عصا تغيير السرعات، ودفعتها إلى وضع الحركة بصوت عال مزعج.

قالت بصوت مبحوح:

– إذا عدت، اتصل بي هاتفياً.

قال أوستن:

– بالتأكيد، سأتّصل بك، لست أدري ماذا عساي أفعل في باريس غير ذلك، وأوصد الباب مرّة أخرى بإحكام. ومضت مبتعدة بالسيارة، منزلقة بإطاراتها على الأحجار الملساء. وسار أوستن عبر الشارع إلى الفندق، دون أن يتطلّع إلى أضواء سيارتها الخلفية فيما هي تختفي في البعيد.

في الساعة الواحدة بعد انتصاف الليل، وهو ما يعني السادسة صباحاً بتوقيت شيكاغو، اتصل هاتفياً ببرباره، واقتربا من أن تدور بينهما مشاحنة، وهو ما أثار حنق أوستن، لأنّه عندما اتّصل بالهاتف مديراً الرقم، رقم هاتفه المعهود، وسمع الرنين المألوف، وأحسّ أنّه سعيد، سعيد بأن يكون على وشك مغادرة باريس بعد ساعات قلائل فحسب، سعيد بأنه عائد إلى بيته، وبأنّه ليست له زوجة يعود إليها فحسب، وإنّما هذه الزوجة هي بربارة، التي يحبّها ويقدرها معاً، وسعيد لأنّه حقّق «اتصاله» مع جوزفين برنار (تلك كانت الكلمة التي كان يستخدمها، وفي البداية كانت كلمة «تقارب» ولكن تلك الكلمة تمّ التخلّي عنها في يسر)، سعيد بأنّه ليست هناك عواقب يخشاها، ولا وجود لوعود زائفة توحي بآمال زائفة، ولا وداعات دامعة، ولا شعور بالتزامات هي أقرب إلى الشراك، أو الشعور بأنّك قد وقّعت في شر أعمالك، وما من ضرر يتعيّن استدراكه.

لم يكن معنى هذا أنّ شيئاً لم يحدث، لأنّه قد حدث الكثير، حدثت أمور يعرفها، وتعرفها جوزفين بليار، وهو ما جرى التعبير عنه عندما أمسكت برسغه في السيّارة، وأقرّت بأنّها ليست على قدر كاف من القوّة، أو أنّ شيئاً عندها كان أقوى ممّا ينبغي.

حدّث أوستن نفسه في تلك الليلة، وهو يجلس مستنداً إلى رأس سريره في غرفته، فيما عكف على احتساء قدح من الشمبانيا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الدافئة من الثلاّجة الصغيرة: ما الذي يريده المرء في الدنيا؟ كان يرتدي سروال بيجامته الزرقاء، وقد جلس حافياً فوق أغطية الفراش، ومضى يحدِّق عبر الغرفة في صورته المرتسمة على صفحة المرآة القائمة التي تحتلّ جداراً بكامله في الغرفة. رجل في فراش إلى جانبه مصباح مما يوضع بجوار الفُرُش، وكأس على معدته. ما الذي يريده المرء أكثر من أي شيء آخر عندما يكون قد جرّب كثيراً، وعانى بعض الشيء، وحافظ على ما لديه، وحاول أن يحسن العمل مادام ذلك بمقدوره؟ ما الذي تعلّمنا هذه التجربة ممّا يمكن الإفادة منه؟ راح أوستن يحدّث نفسه بأن ذكرى الألم تتصاعد وتضفي ثقلاً على الحاضر – ثقلاً مخزياً – وأنّ ما يتعيّن على المرء أن يكتشفه، في ضوء ذلك، هو ما يعد ممكناً وكذلك ثميناً ومرغوباً فيه بين البشر، عند مستوى خفيف من الأحداث.

حدّث نفسه بأنّ ذلك ليس بالأمر اليسير. ومن المؤكّد أنّه ليس في وسع الجميع القيام به، ولكنه، هو وجوزفين بليار، قد اجترحاه على نحو لا بدّ من الاقرار بسهولته ويسره، ووضعا أيديهما على نقطة اتصال كانت عواقبها إيجابية بالنسبة لكلّ منهما. لم يقع ضرر، ولا اضطراب، ومع ذلك، فإنّ ما جرى لم يكن بالأمر اليسير أيضاً. وأدرك، بالطبع، أنّه لو مضى في طريقه قُدُماً لكانت جوزفين إلى جواره الآن، رغم أنّ الله وحده يعلم في أيّ حالة ذهنية من العذاب والاضطراب كان يمكن لجوزفين أن تكون، وساعات الليل المتأخّر تنقضي على مهل، والجنس مَعْقِد أملهما الوحيد في الشعور بالرضا. كانت فكرة منفرة. كانت هناك متاعب، وما من سبيل إلى اكتساب شيء، وإنّما الخسارة وحدها هي المطروحة. ولكنهما معاً توصّلا إلى طريق أفضل يشقّانه، أفضى إلى أن يكون وحيداً في غرفته وهو يحس أنّ كلّ شيء على ما يرام، بل يحسّ أنّ كلّ شيء تغمره الفضيلة، وأوشك أن يرفع كأسه مُحيِّياً نفسه في المرآة، ولم يحل دون ذلك، غير أنّ الأمر بدا مثيراً من السخرية.

إنتظر قليلاً قبل أن يتصل هاتفياً ببربارة لأنّه حسب أن جوزفين قد تتصل به. ويتناهى إليه، من الفراش، صوت مثقل بنعاس آخر

الليل. إنها فرصة تتاح لها لتقول شيئاً آخر له، شيئاً مثيراً للاهتمام، ربما كان شيئاً جاداً، أمراً لم ترغب في قوله عندما كانا معاً في السيّارة وكان بوسع كلّ منهما أن يمدّ يده للآخر.

لكنها لم تتصل، وألفى أوستن نفسه يحدّق في الهاتف الذي بدا له غريباً، وتمنّى أن يدوي جرسه. كان قد أجرى حواراً مطولاً بينه وبين جوزفين، وراح يديره في ذهنه عدّة دقائق. تمنى لو أنّها كانت هنا الآن، كان ذلك هو ما أراد أن يقوله لها، على الرغم من أنّه كان قد قرّر بالفعل أنّ ذلك ليس بالشيء المحبّب. ومع ذلك فقد فكر فيها وهي غافية وحيدةً في الفراش، وفي أن ذلك أثار في نفسه شعوراً بالخواء يثير الغثيان على وجه التقريب، ثم إنه، لسبب من الأسباب، فكر في مقابلتها للشاب الأصغر سنّاً، الذي عاشت معه قصة الحب، التي أفضت إلى الكارثة، القصّة التي أنهت زواجها. وعندئذ التقط سمّاعة الهاتف ليتبيّن ما إذا كان يعمل، ثم وضعها في موضعها مجدّداً، ثم التقطها مجدّداً، واتّصل ببربارة.

– ما الذي تفعله الليلة يا حبيبي؟! هل تقضي وقتاً طيباً؟

قالتها بربارة بصوت يوحي بمعنويات عالية. كانت في المطبخ تعدّ طعّام العشاء لنفسها. وكان بمقدوره سماع قعقعة الأواني. استحضر صورتها في ذهنه، طويلة، جميلة، وواثقة في الحياة.

– صحبت امرأة لتناول طعام العشاء.

قالها أوستن، على حين غرة وبجلاء، ولم يكن هناك تأخير في الاتصال عبر الخط الدولي. بدا وكأنّه يتّصل من مكتبه. وبرغم ذلك، كان هناك شيء يجعله يشعر بالضيق، حدّث نفسه بأنّ ذلك ربما كان صوت الأواني، أو الحقيقة المتمثّلة في أنّ بربارة اعتبرت إعداد طعام عشائها أمراً مهماً بحيث أنّها واصلت القيام به وهي تحادثه. انحسر شعوره بالفضيلة. قالت بربارة:

– طيّب. هذا أمرٌ رائع. هل هي إنسانة متميّزة، أم أنّك صادفتها على قارعة الطريق فبدت لك جائعة؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تكن جادّة في حديثها.

قال أوستن، متجهّماً:

– إنّها امراة تعمل مراجِعةً في دار بيريجور للنشر.

– ذلك أمر حسن.

قالتها بربارة، وعلا في صوتها ما بدا أنّه حافة احتدام في مشاعرها، وراح يتساءل عمّا إذا كان هناك مؤشّر في صوته، شيء انذرها بالخطر ايّاً كان الجهد الذي بذله لكي يبدو طبيعياً، شيء سمعته من قبل على امتداد السنين، ولا سبيل إلى إخفائه.

قال أوستن:

– كان أمراً طيباً قضينا وقتاً لطيفاً. لكنّني سأعود إلى الوطن غداً.

قالت بربارة بابتهاج:

– طيب، نحن في انتظارك.

قال أوستن:

– من المقصود بـ«نحن»؟

– انا، والدار، والنباتات والنوافذ، والسيّارات. حياتك. نحن جميعاً في انتظارك بابتسامات واسعة على وجوهنا.

قال أوستن:

– عظيم.

قالت بربارة:

– إنه أمرٌ عظيم.

ثم ساد صمت عبر الخط – صمت باهظ الكلفة يمتدّ عبر المحيط. واحسّ أوستن حاجته إلى إعادة ترتيب حالته المزاجية الطيّبة، فليس لديه ما يدفعه للحنق، أو للشعور بعدم الارتياح. وكلّ شيء على ما يرام، وبربارة لم تأت شيئاً إذا، وكذلك كانت حاله. قالت بصورة

عفوية عابرة:

– ما الوقت الآن هناك.

سمع قعقعة آنية أخرى، ثم صوت انسكاب الماء في حوض الغسيل غدا كأس الشمبانيا الذي يحتسيه دافئاً، وأصبحت الشمبانيا مسطّحة وحلوة الطعم.

– بعد الواحدة، والنعاس يغمرني الآن، وأمامي يوم طويل غداً.

قالت بربارة:

– عليك بالنوم إذن!

قال أوستن:

– شكراً.

ساد المزيد من الصمت. قالت بربارة بصوت يوحي بالانكسار هوناً:

– من هي هذه المرأة؟

قال أوستن:

– مجرّد امرأة قابلتها. متزوّجة، ولديها طفل، إنها الحياة العصرية.

قالت بربارة:

– الحياة العصرية.

كانت تتذوّق شيئاً مّا الآن. ومهما كان ماراحت تعدّه، فقد مضت تتذوّقه الآن.

قال أوستن:

– بالضبط، الحياة العصرية.

قالت بربارة:

– فهمت. الحياة العصرية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طرقت بقوّة على حافة مقلاة بملعقة.

قال أوستن:

– هل أنت سعيدة بعودتي إلى الدار؟

– بالطبع.

قالتها بربارة، ولزمت الصمت قليلاً، بينما حاول أوستن أن يحدّد لنفسه، على وجه التقريب، التعبير الذي يكسو محياها الآن. كانت كل الملامح في محياها الجميل للغاية تبدو أكثر نحافة عندما ينتابها الغضب. وراح يتساءل عما إذا كانت ملامحها نحيفة الآن. قالت بربارة محاولة أن يكتسب صوتها نبرة لا تجاوز الفضول:

– هل تحسب من المحتمل أنّك نظرت لي الليلة على أنّني مخلوقة مسلم بوجودها وأنها من طبائع الأمور؟

ساد الصمت. كانت تواصل الطهي. وحيدة في منزلهما تطهو الطعام لنفسها، وكان في فندق لطيف في باريس – هو دير سابق – يحتسي الشمبانيا، مرتدياً بيجامته. كان هناك بعض التضارب. عليه أن يقرّ بذلك، رغم أنّه ليس مهماً في نهاية المطاف، حيث أنّ كلاً منهما في حالة طيّبة، ولكنّه شعر بالأسف عليها، الأسف لأنّها اعتقدت أنّه ينظر إليها على أنّها من قبيل تحصيل الحاصل، بينما الأمر ليس كذلك، بل الحقيقة أنّه أحبّها وتلهّف لرؤيتها. شعر بالأسف لأنّها لم تعرف مشاعره الآن تواً، وكيف أنّه يحترمها كثيراً. وحدّث نفسه بأنّها لو عرفت لجعلها ذلك سعيدة.

قال أوستن أخيراً في معرض الردّ على السؤال:

– لا. لا أعتقد أنّ ذلك قد حدث. لا أعتقد ذلك حقّاً. هل تعتقدين أنّني حملتك على هذا المحمل؟

قالت بربارة، فيما تناهى إليه صوت إغلاق إحدى خزانات المطبخ:

– لا؟ كل شيء على ما يرام إذن. لم أرد أن تحسب أنّك تنظر إليّ على أنّني تحصيل حاصل. ذلك كلّ ما في الأمر.

قال أوستن، والحزن يوشي صوته:

– لم يتعيّن علينا الحديث عن هذا الآن، لسوف أعود غداً، وأنا أتوق لرؤيك، ولا ينتابني الغيظ حيال أيّ شيء. فلماذا يستبدّ بك أنت؟

قالت بربارة:

– ليس الأمر كذلك. لا بأس، لا أهمية لهذا الموضوع، كل ما في الأمر أنّني أفكّر في أمور ثم تمضي لحال سبيلها.

تناهى إليه المزيد من قرقعة الملعقة على المقلاة.

– أحبك.

قالها أوستن، وبدأت حافة أذنه تؤلمه من جراء إسناد سماعة الهاتف إليها بكتفه.

قالت بربارة:

– طيب. إمض للنوم وأنت تحبّني!

– لست أرغب في المجادلة.

قالت بربارة:

– لا تجادل، إذن، ربما لم أكن في حالة مزاجية طيّبة. آسفة.

قال أوستن:

– لِمَ أنت غاضبة؟

– في بعض الأحيان...

قالتها بربارة وتوقّفت. ثم أضافت:

– لست أدري. في بعض الأحيان تعاملني كدفقة بول تتخلص منها.

– طيّب. خراء! قال أوستن:

قالت بربارة:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– خراء هي الكلمة المناسبة. الأمر لا يهمّ. نل قسطك من النوم!

قال أوستن:

– جميل. سأفعل ذلك.

قالت بربارة:

– سأراك غداً، يا حبيبي!

– بالتأكيد.

قالها أوستن، وهو يرغب في أن يبدو حديثه عفوياً، وشرع في قول شيء آخر، أن يبلغها بصوت عفوي أنّه يحبّها، ولكنها كانت قد أقفلت الخط.

جلس في الفراش مرتدياً بيجامته، محدقاً في نفسه على صفحة المرآة المضببة. كانت صورة مختلفة عن ذي قبل. بدا متجهّماً، مستاءاً، والأضواء المجاورة لفراشه ضارية متطفّلة، وكأس الشمبانيا التي عكف عليها فارغة، والليلة التي قضاها لتوّه بعيدة عن النجاح وغير واعدة ومذلّة على نحو غامض. بدا كما لو أنّه يتعاطى المخدرات، وحدّث نفسه بأن تلك هي الصورة الحقيقية. عرف أنّه سينظر إلى الأمر على نحو مختلف فيما بعد، وسيرى الأحداث في ضوء أكثر تعاطفاً وأشد مجاملة، وسترتفع روحه المعنوية على نحو ما حدث دائماً، وسيشجّعه أمرٌ مّا أو شيءٌ مّا. ولكن الوقت الحالي هو وقت القراءة الحقيقية، فيما راح يحدّث نفسه، حيث المدّ منحسر، وكلّ شيء مكشوف للعيان – نفسك – على نحو ما هي عليه حقاً وصدقاً. هنالك كانت الحياة الحقّة، ولم تساوره أوهام مضللة بشأنها. تلك هي الصورة التي يتعيّن عليك التصرّف بمقتضاها.

جلس في الفراش، وأحسّ مشاعر الكآبة تداهمه، واحتسى بقية الشمبانيا الدافئة، وفكّر في بربارة وهي وحيدة في الدار، وربما كانت عاكفة على القيام بشيءٍ مّا في معرض الاستعداد لوصوله أصيل اليوم التالي – ربّما كانت ترتّب بعض الزهور المقطوفة للتوّ،

أو تستعدّ لطهي طعام يؤثّره بصفة خاصة – ربما كان ذلك هو ما تقوم به في غمار حديثهما، ويقيناً أنّه، في هذه الحالة، قد أخطأ في شعوره بالضيق. وبعد قليل من التفكير، وفقاً لهذه التصوّرات، مدّ يده إلى الهاتف، وأدار رقم جوزفين. كان ذلك في الساعة الثانية من بعد منتصف الليل. إنه سيوقظها، ولكن لا بأس، فعمله هذا سيسعدها. سيقول لها الحقيقة: انه لم يستطع إلاّ الاتصال بها، وأنّه قد افتقدها بالفعل، وأنّ في هذا الأمر شيئاً يجاوز ما يبدو على السطح. ولكنه عندما طلب رقمها ألفى الخط مشغولاً، وظلّ مشغولاً لمدّة خمس دقائق، امتدّت إلى ربع ساعة ثم إلى نصف. وعندئذ أطفأ المصباح الضاري المجاور للفراش، وأسلم رأسه للوسادة الناعمة، وولج إلى عالم النعاس.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٤ -

على مقربة من مسرح الأوديون، الذي يشمخ بحدّة مرتفعاً عن الشارع الضيّق، الذي ينتهي عند الباليه دى لوكسمرج، أدرك أوستن أنه في طريقه للوصول إلى شقة جوزفين خاوي الوفاض، وهو خطأ جليّ. وفكر أن يحضر معه بعض الزهور اليانعة، أو أن يحضر لعبة تكون هدية صغيرة من شأنها أن تجعل ليو يميل إليه، عندما يقوم، هو، على رعايته في ساعةٍ من الزمان تقوم فيها جوزفين بزيارة محاميها. وكان ليو في الرابعة من عمره، مدللاً، عصبي المزاج. شاحباً، له شعر قاتم من النوع الناحل الضعيف المتهدّل، وعينان سوداوان تتغلغلان في الناظر إليه. وعندما كان يبكي - وهو ما يقوم به غالباً - فإنّه يبكي بصوت عال، واعتاد أن يفتح فمه، ويتركه على هذا النحو ليصدر عنه من الصوت قدر ما يستطيع، وهي عادة أبرزت الطابع القردي لمحياه، وهو طابع كان يبدو في بعض المناسبات أنه يشترك فيه مع جوزفين، وقد شاهد أوستن في التلفزيون بعض الأفلام الوثائقية التي تظهر القردة وهي تقوم بفعل هذا الأمر عينه، بينما هي تقتعد الأشجار - وعلى الدوام بدا كما لو أنّ ضوء النهار يختفي، ويحلّ مقدم ليل طويل لا يسبر له غور ولا يتصوّره ذهن. ربما كانت كذلك حياة ليو. وكانت جوزفين قد قالت بلهجة من يقرّر أمراً واقعاً في المرّة التي زار خلالها شقتها، تلك المرّة التي أصغيا خلالها لموسيقى الجاز وجلس وأعجب بأشعة اشمس الذهبية على حواف المباني:

- الأمر راجع إلى طلاقي من أبيه، فهو عنده شيء صعب للغاية.

إنه طفل، ولكن...

هزّت كتفيها، وشرعت تفكر في شيء آخر.

لم يلمح أوستن حوانيت تبيع الزهور، فمضى إلى متجر صغير أنيق يضع أصحابه في واجهته ألعاب أطفال خشبية: شاحنات خشبية باهرة اللون ذات تصميم بديع مركّب، طيور وحيوانات خشبية متألّقة، بطٌّ وأرانب وخنازير ذات تفاصيل تتحدّى العقل تماماً. بل هنالك مزارع فرنسي يضع حول عنقه منديلاً أحمر ويعتمر غطاء رأس أسود. دار مزرعة صنعت من الخشب بكاملها، وصنعت على نحو استغرق جهوداً مذهلة بأسقف من القرميد ونوافذ ناتئة من أسقف مائلة وأبواب هولندية، وهي أغلى مما اعتزم دَفْعَه. الأطفال جيّدون، لكنه لم يرد طفلاً من صلبه قط، ولم تردهم بربارة أيضاً. وكان ذلك هو أوّل موضع اتفاق بارز بينهما عندما كانا يدرسان في الجامعة في الستينيات، واختير فارساً للمبادا تشي واختيرت هي ملكة جمال لمبادا تشي – وكان ذلك السبب الأوّل الذي وجدا أنّه يدفعهما للتفكير في انهما ربّما خلقا أحدهما للآخر. حدّث أوستن نفسه بأنّ ذلك كان منذ سنين – منذ اثنتين وعشرين سنة – انزلقت جميعها بعيداً عن مطال الأيدي.

ورغم ذلك، فقد بدا أن المتجر الصغير يضمّ العديد من الأشياء الجميلة التي يمكن لأوستن أن يدفع ثمنها – ومنها ساعة خشبية تحرّك عقربيها بنفسك، نموذج خشبي لبرج إيفل، وكذلك نموذج لقوس النصر. وكان هناك مجسّم لطفل زنجي يمسك ببطيخة خضراء صغيرة من الخشب، ويبتسم مفتراً عن أسنان مطلية بلون أبيض متوهّج، وكان له، باستثناء الابتسامة أن يذكره بالطفل ليو، ويفكر في شرائه وحمله معه إلى الدار هديةً لبربارة.

في الداخل، ظنّت البائعة من الطبيعي أنه يرغب في شراء تلك اللعبة، وشرعت في إخراجها من علبتها، ولكن كانت هناك سلّة صغيرة مصنوعة من الأماليد المجدولة، مليئة بالبيض الملوّن على أعلى النَّضَد، ثمنها عشرون فرنكاً، التقط أوستن واحدة من هذه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السلال، مطلية بالميناء، خضراء اللون، وأخرى ذهبية مصنوعة من شجر البلزا البالغ الكمال، وتوحي بأنها مجوّفة. وكانت هذه السلال من مخلّفات الفصح، ولكنها أعجبته، وأحسّ بأنّ جوزفين ستحبها أيضاً. وما إن ينحيها الطفل جانباً بعد أن يؤْثِر عليها ما يعتبره أفضل، فإنّ بمقدور جوزفين الحصول عليها، ووضعها على المنضدة الصغيرة المجاورة لفراشها أو على مكتبها في العمل، والتفكير فيه.

دفع أوستن لكاتب المتجر ثمن البيضة الصغيرة ذات النتوءات في جانبها، وشرع في شقّ طريقه إلى الباب. إنّه سيتأخّر عن موعده لأنّه ضلّ الطريق، ولكن لدى وصوله إلى الباب الزجاجي بالضبط، أقبل زوج جوزفين، وبصحبته امرأة شقراء جميلة متوهّجة بالحيوية، ذات ساقين ناحلتين، قد لوحتها الشمس بسمرة داكنة. وكانت ترتدي فستاناً قصيراً فضي اللون يطوق ردفيها بنوع من النسيج المرن، وحدّث أوستن نفسه، وهو يقف غير بعيد عنها في دهشة تامّة، بأنها ثرية. كان زوج جوزفين القصير والبدين بشاربه الكثيف، القاتم اللون، الأرمني المظهر وبشرته الناعمة السمراء، أقصر من المرأة بما يعادل طول رأس على الأقلّ، ولكنه كان يرتدي بدلة سوداء غالية الثمن غير محدّدة الخطوط. كانا يتحدّثان بلغة بدت وكأنها الألمانية. وبدا برنار، الزوج الذي كتب الرواية الفضائحية عن جوزفين، والذي لم يقدّم لها إلاّ القليل من المال، ولم يكترث بابنه، والذي كانت جوزفين ماضية، في أصيل ذلك اليوم نفسه، لتأمين حصولها على الطلاق منه – بدا حريصاً على شراء هديّة من المتجر.

ألقى برنار، على أوستن، نظرة عجلى يشوبها الانتقاد، وقد توهّجت عيناه الصغيرتان السوداوان تقريباً بتعرف غامض، على الرغم من أنّه لا يمكن أن يكون هناك مجال لأي تعرف، فبرنار لم يعرف عنه شيئاً، وفي حقيقة الأمر أنّه لم يكن هناك ما يُعرف. ومن المؤكّد أنّه لم يسبق لعيني برنار أن وقعتا عليه. وكل ما في الأمر أنّ تلك كانت طريقته في النظر إلى النّاس، وكأنّما لديه رقم هاتفك ولم يمل إليك كثيراً. تساءل أوستن: ترى لماذا تعتبر هذه الخاصية

جذابة في الرجل؟ تشكك. كراهية. طبيعة متنمرة. لِمَ الزواج من حمار كهذا؟

توقّف أوستن داخل المتجر قرب الباب، متطلّعاً إلى إحدى الواجهات من الداخل، وراح يتمعّن في نموذجي برج إيفل وقوس النصر الخشبيين الصغيرين، ولاحظ أنهما جزءان من باريس صغيرة بكاملها صنعت من الخشب. هي لعبة في وسع الطفل أن يلهو بها، وينسقها على أي نحو يشاء. هناك نوتردام خشبية، ومتحف لوفر خشبي، ومسلّة فرعونية، ومتحف بومبيدو، بل ومسرح أدويون خشبي صغير يشبه ذلك القائم على بعد خطوات عبر الشارع، وكانت المجموعة الكاملة باهظة الثمن كأنها تستمد نيران سعرها من الجحيم – حوالي ثلاثة آلاف فرنك – ولكن بوسعك ذلك ابتياع القطع منفردة. وفكّر أوستن في شراء شيء يتناسب مع البيضة المطلية بالميناء، فيقدم البيضة إلى جوزفين والمبنى المصغّر يقدّمه إلى ليو. ووقف يحدق في المدينة المصغرة المصنوعة من الخشب، والتي وراءها، خارج الواجهة، كانت المدينة الحقيقية المصنوعة من المعدن والحجر تواصل حياتها دونما اكتراث.

مضى برنار وصديقته الشقراء يضحكان على نموذج الطفل الزنجي الصغير الممسك ببطيخته، التي تجمع بين اللونين الأحمر والأخضر، وأخرجه كاتب المتجر من علبته، وأمسك به برنار وهو يضحك عليه باستهجان. وقال مرّة أو مرّتين «زنجي صغير» ثم قال «إليك! إليك!» ثم قالت المرأة شيئاً بالألمانية فانفجرا معاً ضاحكين من جديد، وحتى صاحبة المتجر ضحكت وراء النضد.

تلمّس أوستن البيضة الخضراء في جيب سرواله، وقد أحسّ أنها كتلة بإزاء ساقه، وفكّر في المضي وشراء باريس الخشبية اللعينة بكاملها، وأن يقول لبرنار بالانجليزية: «إنّني أشتري هذا لابنك، يا ابن الكلبة!» وفكر في تهديده بقبضة يده. ولكن تلك كانت فكرة سيّئة، ولم يجد لديه ميلاً للشجار، بل كان لديه احتمال استبعد به ألاّ يكون هذا الرجل هو برنار على الاطلاق، وكلّ ما هنالك أنّه يشبه الصورة المعلقة في غرفة ليو، وسيكون شديد البله

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إذا ما هدّده بالضرب.

دسّ يده في جيبه، وتحسّس طلاء الميناء الذي يكسو البيضة، ومضى يتساءل عما إذا كانت تلك هدية مناسبة أم ستثير السخرية لدى جوزفين؟ إلتفتت المرأة الالمانية، وتتطلعت إليه، وابتسامة ضحكة الازدراء ماتزال على شفتيها لم تنحسر تمام الانحسار. نظرت إلى وجه أوستن ثم إلى جيبه حيث كان يمسك بالبيضة الصغيرة، ومالت إلى الأمام وقالت شيئاً لبرنار، شيئاً بالفرنسية، والتفت برنار، وتطلع إليه عبر المتجر، عاقداً حاجبيه في نوع من التحذير الاستهجاني، ثم رفع ذقنه قليلاً واستدار، وقالا شيئاً آخر، ثم ضحكا ساخرين. نظرت صاحبة المتجر إلى أوستن وابتسمت بطريقة ودية، وعندئذ غيّر أوستن رأيه حول شراء المدينة الخشبية، وفتح الباب الزجاجي، ومضى على الرصيف، حيث كان الهواء بارداً وبمقدوره أن يرى التلّ القصير الذي يفصله عن الحديقة العامّة.

- ٥ -

في ضاحية أوك جروف بإلينوي، اعتزم أوستن أن يتّخذ من وجوده المألوف هدفاً يحاول تحقيقه: الانطلاق بالسيارة من وإلى مكتبه بالضواحي من أورتشارد بارك القريبة، والمساعَدة في تدريب فريق صغير مشارك بالدوري ترعاه شركة يملكها أحد أصدقائه، وهي شركة أوك جروف لونليوم، وقضاء الأمسيات بالدار مع بربارة، التي كانت تعمل سمسارة لحساب شركة كبيرة تبيع العقارات التجارية، والتي كانت في قلب موسم بيع رائع جاء في أعقاب فترة ركود.

كان في وسع أوستن الشعور بأنّ ثمّة ما لا يرام فيما يتعلّق بنفسه، وهو أمر أثار حيرته، ولكن بربارة كانت قد قرّرت مواصلة الحياة اليومية وكأنّ ذلك ليس أمراً صحيحاً، أو كأنّ ما يضايقها أمرٌ يخرج عن نطاق سيطرتها. وبما أنها تحبه، فإن مشكلاته إمّا أنها ستحلّ بشكل يقتصر عليه، أو سيبعدها التدفق العادي للحياة اليومية العادية السعيدة.

وكانت رؤيتها متفائلة على نحو منهجي، وقوامها أن كل شيء، بالموقف المناسب، سيمضي إلى الأفضل. وقالت إنّ ذلك يُعلَّل بأن عائلتها كلّها تنتمي إلى الطائفة البريسبيتارمة الاسكتلندية، وكانت تلك رؤية يعجب بها أوستن، على الرغم من أنّها لم تكن دائماً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطريقة التي ينظر بها إلى الأمور، فقد اعتقد أنّ الحياة اليومية تملك القدرة على أن تطحنك وتحوّلك إلى تراب - والمثال على ذلك حياة أبويه في بيوريا وهي حياة ما كان بمقدوره أن يحتملها - وفي بعض الأحيان تقتضي الأمور إجراءات غير عادية، وقد قالت بربارة إنّ وجهة النظر هذه هي بالضبط وجهة نظر سكان الأكواخ من الايرلنديين.

في يوم عودة أوستن إلى الشمس الربيعية الحارّة، الساطعة في المطار، وبعد أن تأخّرت به الطائرة، وارغم نفسه إرغاماً على رفع معنوياته، كانت بربارة قد طهت فخذاً من لحم الغزال في صلصة تين رائعة ذات وصفة سرية، هي وجبه يتعيّن الحصول على مكوّناتها بجهد فائق من حي مَجَريّ في وست دايفرس، بالإضافة إلى نبيذ ميرلو البالغ الجودة، الذي احتسى أوستن الكثير منه بلهفة، احتساءً يصحبه الكذب، وتصحبه المعاناة من كلّ ما فعله في باريس. وكانت بربارة قد اشترت فستاناً جديداً يناسب فصل الربيع، وقصّت شعرها قصّة جديدة، وبصفة عامة تكبّدت الكثير في وقت متأخّر من الليل، وذلك على الرغم من أن أوستن قد أحسّ أنّ على كاهله، هو، تلقى مسؤوليته إزالة تلك اللحظة غير المريحة من الذاكرة، والحرص على أن تكون حياته الزوجية الراسخة، من جديد، مصدر سعادة لا تشوبها شائبة وتحف بها النيّات الحسنة.

في وقت متأخّر من تلك الليلة، وكانت ليلة الثلاثاء، ضاجع بربارة مضاجعة قصيرة، يأخذ السكر بأكنافها، في ظلام غرفة نومهما ذات الستائر الكثيفة، على صوت نباح كلب الجيران السنبلي الصغير، الذي لم يتوقف عن الدوي على مبعدة شارع واحد منهما. كانت مضاجعة تفصح عن مراس، وتخلو من المفاجآت، مجموعة من البروتوكولات والافتراضات التي درجا عليها بحب، كأنّها طقس ديني، والتي تؤشّر وإن لم ترتبط كثيراً بالألغاز والعماء الذي جعلها ذات يوم ضرورة تتقطّع لها الأنفاس. ولاحظ أوستن، من خلال الساعة الرقمية الموضوعة على خزانة الأدراج، أن الأمر بكامله لم يستغرق إلاّ تسع دقائق، من البداية إلى النهاية.

وراح يتساءل متجهماً: أعاديٌّ هذا التوقيت أم أقل من عاديّ لأميركيين في مثل سنه وسن بربارة. وقد افترض أنّه أقل من عادي، على الرغم من أنّه لم يكن هناك شك في أنّ القصور يقع على كاهله.

رقد هو وبربارة عقب ذلك في الظلام المترع بالصمت، جنباً إلى جنب، وهما يواجهان سقف الجص الأبيض (وقد أصاب الخرس كلب الجيران كأنما بلطمة عصا من مراقب خفي لفعلتهما). وحاولا أن يجدا ما يقولانه. كان كلّ منهما يعرف أنّ ذهن الآخر يسعى وراء ما يقال، وراء موضوع محترم، يمضي بهما قدما يبعد عنهما العامَيْن، أو ربما الأعوام الثلاثة الأخيرة التي لم تكن رائعة للغاية بينهما – وهو، لأوستن، وقتٌ للتَّجْوال بعيداً، ولبربارة وقتٌ للصبر. كانا يرغبان في شيء بعيد عن الإثارة والاستفزاز يسمح لهما بالنوم وهما يفكران في أنفسهما على نحو ما يفترضان أنهما عليه.

قالت بربارة متحدّثة في الظلام كمن يقرّر أمراً مسلماً به:

– تَعِبٌ أنت؟ لا شك في أنك مجهد للغاية، أيها العجوز المسكين!

مدّت يدها، وربتت على صدره، وأضافت:

– نم! غداً تشعر بالتحسّن.

قال أوستن بانتباه:

– إنني على مايرام الآن. ولست متعباً. هل يبدو عليّ التعب؟

– يخيّل إليّ أنّه لا يبدو عليك.

لزما الصمت من جديد، وأحسّ أوستن الاسترخاء على وقع كلماتها. والحقيقة الأمر أنّه كان متعباً، كأنّما تآكلت أعماقه، ولكنه أراد أن ينهي الليلة نهاية طيّبة، وهي ليلة أحسّ أنها ليلة جميلة، ونهاية للعودة إلى الدار وللوقت الذي كان فيه بعيداً ومُفْتَتناً، بجوزفين بليار، افتتاناً تثير السخرية. ذلك اللقاء – لم يكن هناك لقاء بالطبع – ولكن تلك الأقوال والاهتمامات يمكن الآن تنحيتها جانباً، يمكن إبعادها من خلال الانضباط، فهي لم تكن حياة حقيقية، على الأقلّ لم تكن الحياة الصلدة كالصخرة، الحياة الواقعية، الحياة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي يتوقّف عليها كلّ شيء، أياً مّا كانت الكيفية التي أحسّها. واحتجّ للحظة. إنه لم يكن أحمق، ولم يبلغ به الغباء أن يفقد إحساسه بأبعاد الأشياء. ومضى يحدّث نفسه كأنّه ممن ظلّوا على قيد الحياة وَسْط المخاطر، والناجون من المخاطر يعرفون على الدوام اتجاه البر.

– كل ما هنالك أنني أريد رؤية ما هو ممكن الآن.

قالتها أوستن على غير توقّع. كان شبه نائم، وكان يدير حوارين في وقت واحد – حواراً مع زوجته بربارة، وحواراً مع نفسه عن جوزفين بليار – وها هما الحواران يختلطان. ولم تكن بربارة قد طرحت عليه أي سؤال يمكن أن يكون ما غمغم به الآن رداً عليه يتسم بالمنطق حتى من بعيد. وقد تذكّر أنّها لم تطرح عليه أيّ سؤال على الإطلاق. لقد كان يدمدم فحسب، متحدّثاً على مشارف النعاس. وأطبق عليه خوف بارد يدفع للتصلّب من أن يكون، وهو شبه نائم وشبه غارق في السكر، قد قال شيئاً يندم عليه، شيئاً يدينه بحقيقة ما جرى فيما يتعلّق بجوزفين، على الرغم من أنّه، في حالته الذهنية الراهنة، لم يكن متيقناً على الإطلاق، مما يمكن أن تكون عليه تلك الحقيقة.

قالت بربارة وصوتها ينبعث من الظلام:

– يتعيّن ألاّ يكون ذلك أمراً متعذّراً. أليس كذلك؟

قال أوستن، وهو يتساءل عمّا إذا كان مستيقظاً:

– كلا. أظن أنّه ينبغي ألاّ يكون متعذّراً.

– إنّنا معاً، ونحن متحابان، ومهما يكن ما نريد جعله ممكناً، فينبغي أن يكون بمقدورنا جعله كذلك.

قالتها بربارة، وهي تلمس ساقه من خلال البيجامة.

قال أوستن:

– نعم، ذلك صحيح.

تمنى أن تنام بربارة الآن. ولم يرغب في قول شيء آخر، فالحديث بدا كحقل الغام، لأنّه لم يكن متأكّداً مما سيقوله.

لزمت بربارة الصمت، بينما تقبضت أعماقه برهة، ثم شرعت في الاسترخاء. لقد صمّم ألاّ يقول شيئاً آخر، ولم يفه بحرف. وبعد دقيقتين، تقلّبت بربارة وواجهت الستائر. ولاح نور الشارع خافتاً من بين مواضع إغلاق الستائر، وراح يتساءل: هل دفعها إلى البكاء دون أن يعي؟.

قالت بربارة:

– أوه. طيّب. غداً تتحسّن. آمل ذلك. طابت ليلتك.

– طابت ليلتك.

قالها أوستن، واستقرّ بنفسه عاجزاً في رحاب النوم، شاعراً بأنّه لم يدخل السرور كثيراً على نفس بربارة، وأنّه ربما أصبح الآن لا يدخل السرور كثيراً على أحد، وأنه، في حقيقة الأمر، وحتى على امتداد عمره – ومن بين الأشياء التي كان ينبغي أن تجعله سعيداً وجعلته كذلك بالفعل – فإنّ القليل منها هو الذي أدخل السرور على نفسه كثيراً على الإطلاق.

في الأيام التالية، مضى أوستن للعمل على النحو المعتاد، وأجرى اتصالات مجاملة مع عملائه في بروكسل وأوستن. وأبلغ رجلاً عرفه لمدة عشر سنوات، وحمل له الكثير من الإجلال بأنّ الأطبّاء قد اكتشفوا «التهاباً غامضاً» في أعلى الربع الفوقي من معدته، ولكن هناك أملاً معقولاً في أنه، بمساعدة الأدوية، يمكن تجنّب إجراء عملية جراحية. وحاول التفكير في اسم الدواء الذي يتناوله لكنه لم يستطع، وفيما بعد أحسّ الاكتئاب لاضطراره إلى قول مثل هذا الزيف الذي لا محلّ له، وأحسّ قلقاً من أن الرجل قد يذكر شيئاً من هذا لرئيسه في الشركة.

راح يتساءل، وهو يحدّق في الخريطة السمتية المحاطة بإطار فخم، التي أهدتها إليه بربارة عندما أسند إليه منصب رفيع صار به

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مسؤولاً عن المعاملات الأوروبية، والتي علّقها وراء مكتبه ووضع مؤشّرات حمراء صغيرة توضح المدن التي زادت فيها حصّة الشركة من السوق – بروكسل، أمستردام، دوسلدورف، وباريس – وراح يتساءل: هل حياته ومواصلته للمسيرة العادية ينزلقان بعيداً عن نطاق سيطرته، ولكن بطريقة تدريجية لا يمكن رصدها؟ غير أنّ ما وصل إليه: أنّ الأمر ليس كذلك. وبرهاناً على ذلك، طرح الحقيقة القائلة بأنّه يفكّر في هذا بمكتبه، في يوم عمل عادي، وكلّ شيء في حياته منظم في موضعه، ويمضي قدماً إلى الأمام، ولا يفكّر فيه في أحد مقاهي الشوارع الباريسية في المرحلة الغائمة التي تعقب الكارثة، وقد جلس رجلاً متّسخ الملابس، بحاجة إلى حلاقة نقنه، يعوزه المال، يخطّ مسرعاً خواطره البائسة في دفتر من النوع الذي تضمّ صفحاتهِ أسلاكٌ هشّة، شأن كلّ المختلين الذين رآهم، والذين أطاحوا بحياتهم. إنّ هذا الشعور الآن، الشعور بالثقل وبالحياة مقبلة دون أن تجنح سفينتها، هو بالفعل شعور باليقظة وبعبء المسؤولية الذي تمّ تقبّله، وهو البرهان على أن المضيّ بالحياة إلى نهاية ناجحة لم يكن بالأمر السهل على الإطلاق.

في يوم الخميس، ولحظة وصوله إلى المكتب، اتصل هاتفياً بجوزفين في العمل، فقد كانت في كل لحظة تقريباً، بملامحها الدقيقة المتساوقة على نحو غريب، ولكنها تدفع الدماء ساخنة في العروق، وبطريقتها الغلامية في السير، وأطراف أصابعها متّجهة إلى الخارج، كريفيّ أخرق، ولكن كذلك ببشرتها الناعمة اللدنة، وذراعيها الرقيقتين، وصوتها الهامس الساكن في ذاكرته: «لا. لا. لا. لا. لا.».

– مرحباً! هاأنذا.

قالها أوستن. وكان هناك خلل كبير في الاتصال هذه المرّة، كان بوسعه سماع صدى صوته يتردّد عبر الخط، ولم يبد كما أراده، فقد تردّد عالي النبرة، كأنّه صوت صبي.

– ليكن، مرحباً!

كان هذا هو ما قالته، وتناهت إليه أصوات تقليب الأوراق، وهي عادة أثارت ضيقه.

– إنّني أفكّر فيك فحسب.

قالها أوستن، وساد صمت طويل، عقب إعلانه هذا، احتمله دونما ارتياح.

– نعم.

قالتها، وأعقبتها فترة صمت أخرى، أضافت.

– وأنا أيضاً. كيف حالك؟

– في خير حال.

قالها أوستن، على الرغم من أنّه لم يرغب في التأكيد على ذلك، وإنّما أراد التشديد على أنّه يفتقدها. قال:

– إنني أفتقدك.

ساوره الشعور بالضعف، وهو يصغي إلى صوته داخل الصدى.

قالت في النهاية، وإن يكن بشكل سطحي:

– نعم، وأنا كذلك.

لم يكن أوستن متأكداً من أنّها قد سمعت ما قاله، ربما كانت تحادث شخصاً آخر بالفعل، شخصاً في المكتب. أحسّ تشويشاً، وفكر في إنهاء المكالمة، ولكنه كان يدرك ما الذي سيكون عليه شعوره إذا حدث ذلك. سيكون تعساً على نحو يفوق الخيال. وفي حقيقة الأمر أنّه بحاجة إلى التماسك الآن، وإلاّ إنّه سينتهي إلى الشعور بالتعاسة في نهاية المطاف.

قال وأذنه تضغط على سمّاعة الهاتف:

– أودّ كثيراً أن أراك.

قالت جوزفين:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– نعم. تعال، واصحبني إلى العشاء الليلة.

ضحكت ضحكة قاسية، ساخرة تساءل معها: أتقول ذلك لشخص آخر، في المكتب، شخص يعرف جلية أمره، ويظنّ به الحمق. وسمع المزيد من حفيف الأوراق، فأحسّ الأشياء تدور من حوله.

قال:

– أقول جاداً إنني سأفعل ذلك.

قالت:

– متى ستعود إلى باريس؟

– لست أدري، ولكنني آمل أن يكون ذلك في القريب العاجل.

لم يعرف سبباً لما قال، لأنه لم يكن صحيحاً، أو على الأقلّ لم يكن مندرجاً في أيّ خطط لديه الآن. ولم يبد الأمر ممكناً إلاّ في تلك اللحظة فحسب. كان أيّ شيء ممكناً، وقد بدا ذلك ممكناً حقاً، وإن لم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفية تحقيق ذلك، ففرنسا ليست وسكونسن، وليس بمقدورك أن تقرّر الذهاب إلى هناك لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.

قالت جوزفين:

– اتّصل بي، إذن. أراك على خير.

قال أوستن وقد بدا الأسى يأخذ بأكناف قلبه.

– سأراك عندما آتي إلى باريس سأتّصل بك.

أراد أن يسألها عن شيء، على الرغم من أنه لم يعرف عم يسألها. لم يعرف أي شيء يسألها عنه. قال مستخدماً النطق الإنجليزي للاسم.

– كيف حال ليو؟

ضحكت جوزفين، وإن لم تَشُبِ السخرية ضحكتها. وقالت مستخدمة النطق نفسه:

– كيف حال ليو؟ إنّه على ما يرام. وهو في البيت، وسأمضي إلى هناك سريعاً، ذلك كلّ ما هنالك.

قال أوستن:

– جيد. ذلك عظيم.

دار مسرعاً في كرسيه الدوّار، وحدّق في باريس على الخارطة. وكالمعتاد ادهشه كيف انها اقرب إلى قمّة فرنسا بدلاً من ان تكون في الوسط تماماً على نحو ما اعتقد دائماً انّه موقعها. اراد عندئذ ان يسألها لماذا لم تتصل به هاتفياً في آخر ليلة رآها، وان يبلغها بأنّه علّق الآمال على اتصالها به، ولكنه عندئذ تذكّر ان خطّها كان مشغولاً، وأنّه اراد ان يعرف من كانت تحادثه، لكنّه لم يستطع سؤالها عن ذلك. فلم يكن ذلك من شأنه.

– طيب.

قالها أوستن، وعرف انّه خلال خمس ثواني سينتهي الاتصال الهاتفي، وانّ باريس ستكون، في التوّ، بعيدة عن شيكاغو كعهدها ابداً. أوشك ان يقول، في سماعة الهاتف: «احبك»، ولكنّ تلك ستكون غلطة، ولم يقلها، رغم انّ جزءاً منه اراد عاصفاً ان يقولها. ثم أوشك على ان يقولها بالفرنسية، مفكراً في ان من المحتمل ان تعني اقلّ ممّا تعنيه بالانجليزية، ولكنه احجم عن ذلك مرّة اخرى، وقال كحل وسط اخير متهافت، يتعلّق بما ينبغي ان يقوله:

– اود كثيراً ان اراك.

– إذن، فلترني، اقبلك.

قالتها جوزفين بليار، ولكن بصوت غريب، صوت لم يسمعه من قبل قط، صوت يوشك ان يكون عاطفياً، وعندئذ اقفلت الهاتف في هدوء.

جلس أوستن إلى مكتبه، محدّقاً في الخريطة، متسائلاً عمّا كان عليه الصوت، وعما عناه، وكيف يفترض به ان يفسّره. أصوتَ الحب كان، أم هي حيلة غريبة من حيل الخط الهاتفي؟ أم ان اذنه قد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خدعته لتستحضر شيئاً أراد أن يسمعه، ولتتيح له، بالتالي، ألاّ يشعر بالتعاسة على نحو ما ظن أنه سيشعر به. ولكنه في حقيقة الأمر لم يشعر به. إنّه الآن يستشعر إحساساً رائعاً، إحساساً متألّقاً، افضل ما أحسّ به في آخر مرّة راها فيها، إحساساً أن الحياة تتدفق في عروقه. وليس من بأس في ذلك. هل هناك بأس فيه؟ لو انّ شيئاً يجعلك تحسّ إحساساً رائعاً ولا يلحق الضير بأحد، فما جدوى أن تحرم نفسك منه؟ لقد حرم آخرون أنفسهم من هذا الاحساس. ولكن من أجل ماذا؟ إن الفتية الذين التحق بالجامعة معهم، والذين لم يتركوا المسار بمجرّد اندراجهم فيه، لم يعرفوا لحظة تألّق، وربما لم يقدّر لهم أن يعرفوا الفرق مطلقاً. ولكنه عرف الفرق يقيناً، وكان أمراً جديراً بالانطلاق نحوه، ايّاً مّا كانت الصعوبات التي تتحملها وأنت تعيش مع العواقب. وحدّث نفسه: إن لك حياة واحدة، فاستنفدها! ووصلته الرسالة التي حملتها الكلمات.

في ذلك المساء أقلّ بربارة من مكتب العقارات، وانطلقا بالسيّارة إلى إحدى الحانات. وكان ذلك شيئاً دَرَجَا على القيام به، فغالباً ما تعمل بربارة حتى وقت متأخّر، وكانا معاً يحبّان مطعماً بولونيزياً شبه متألّق في منطقة سكوكي، يدعى «هاي – نان» وهو مكان معتم، يتألّف ديكوره من خشب الساج والخيزران، وتقدّم فيه كل المشروبات بكميات مضاعفة، وعندما يبلغ بك السكر الحدّ الذي لا تستطيع معه شق طريقك بالتفاهم مع طاقم العاملين في المطعم إلى إحدى الموائد، يمكنك أن تطلب طبقاً من المشويات، التي تخصّص المطعم في تقديمها، وتعكف على الشراب مع تناول الطعام في البار.

جلس، إلى جوارهما في البار، لبعض الوقت، أحد معارف أوستن، وهو تاجر جملة يدعى نيد كولز (وكان أصدقاؤهما يرتادون المكان بصورة روتينية)، وراح نيد يتحدّث حديثاً عابراً عن انّ أيام تقديم أطباق السلطة للضيوف في مقر المجلس التجاري أصبحت شيئاً يندرج في ظلال الماضي، ثم تحدّث عن الفرص الكبيرة المتاحة في أوروبا بعد ١٩٩٢، وكيف أنّ الولايات المتّحدة في سبيلها إلى أن تفوتها الفرصة للمشاركة في هذا النشاط، وكيف أنّ فريق «فايتنج

إليني» يركّز على مناطق الألعاب التي تقتضي مهارات كبيرة خلال تدريبات الربيع، وأخيراً تحدّث عن زوجته السابقة سوزي التي ستنتقل إلى فونيكس في الأسبوع المقبل، لكي تستطيع المشاركة مشاركةً أوسع في الألعاب الرياضية، وكانت مهتمة بالمشاركة في تصفيات المرأة الحديدية.

– ألا يمكنها أن تكون امرأة حديدية في شيكاغو؟

قالتها بربارة، وكانت بالكاد تعرف نيد كولز. إنه رجل ثقيل الوزن، له وجه يشبه الشمندر، يبدو أكثر تقدّماً في السن من عمره، أي أكثر من أعوامه الستة والأربعين. وقد التحق بجامعة هارفرد، ثم عاد إلى مدينته للعمل في شركة أبيه، وسرعان ما غدا شخصاً مضجراً، سكيراً، وقد قابله أوستن في مدرسة إم. بي. إيه الليلية قبل خمسة عشر عاماً، ولم يلتقيا على الصعيد الاجتماعي. قال نيد:

– ولكن تلك ليست المشكلة الكبرى،

قال أوستن، وهو يقلب مكعّب ثلج في قدح الجن الذي يحتسيه.

– إني أنا المشكلة، أنا،

قالها نيد وقد بدا عليه التجهّم حيال ذلك، ثم أضاف:

– إنّها تذهب إلى القول بأنّني حقل مغناطيسي يشعّ سلبية باتّجاه الجميع في الضواحي الشمالية كافّة، ولذا فإنّها، لكي تبقى هنا، لا بدّ لي من الانتقال إلى إنديانا، وتلك تضحية كبرى.

وضحك نيد ضحكة خالية من المرح، وكان يعرف الكثير من نكات إنديانا، وقد سمعها أوستن بالفعل. وكانت أنديانا بالنسبة لنيد كولز هي المكان الذي تلمح فيه سفينة القيادة للبحرية البولنديه، وتزور نصب أبطال حرب الأرجنتين، كان تجسيداً لشيكاغو القديمة، وحدّث أوستن نفسه بأنّه كان أحمق، وتمنّى رحلة موفّقة لزوجة نيد إلى أريزونا.

عندما مضى نيد متعثراً إلى المطعم، تاركاً أوستن وبربارة وحدهما في البار المصنوع من خشب الساج المطلي باللك، لزمت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بربارة السكون، وعكفا كلاهما على احتساء الجن، وفي صمت تركا الساقي يصبّ لهما كأسين آخرين منه، دون أن يخفّفاه بإضافة شيء إليه، كان أوستن يعرف أنّه قد سكر الآن إلى حدٍّ مّا، وأنّ بربارة ربما كانت أكثر إيغالاً منه في السكر. وساوره شعور بأنّه يمكن أن تكون هناك مشكلة تتربّص بهما، وإن لم يكن على يقين مما تدور حوله هذه المشكلة، واستبدّ به الحنين إلى الشعور الذي ساوره عندما أعاد سماعة الهاتف إلى موضعها، عقب الاتصال بجوزفين بليار في ذلك الصباح. التوهّج حتى الغليان. أن تكون حياً على نحو وحشي. وقد أدرك بصورة كاملة أنّه كان شعوراً مؤقّتاً، ولكنه الآن يتوق إليه على نحو أكثر إيلاماً بسبب طابعه الإيهامي، وضآلته المفعمة بالبراءة، وحدّث نفسه بأنّ الواقعيين أنفسهم يحتاجون إلى مهلة لالتقاط الأنفاس بين الحين والآخر.

شرعت بربارة في الحديث وكأنها تتخيّر ألفاظها بدقّة بالغة:

– هل تتذكر ما جرى في تلك الليلة؟ كنت في باريس وكنت أنا في الدار هنا، وسألتك: هل تعتقد أنّك تنظر إليّ على أنني تحصيل حاصل؟

ركّزت بربارة بؤرة نظرتها على حافة نظارتها، ولكنها سرعان ما رفعت عينيها، والتقت عينيه. كان هناك زوجان آخران في البار، وقد جلس الساقي مسترخياً على مقعد عالٍ في نهاية البار، ومضى يقرأ صحيفة في صمت. كانت تلك ساعة تناول طعام العشاء، وهناك الكثيرون في المطعم، وقد طلب أحدهم طبقاً يقتضي جلب النار من المطبخ إلى مائدته، واستطاع أوستن رؤية اللهب الأصفر وهو يعلو عند السقف، ويسمع صوت الهسيس العالي ومتناولي العشاء المبتهجين وهم يهتفون: «أوه ه ه».

قال أوستن بهدوء، في معرض الردّ على سؤالها:

– لم أعتقد أنّ ذلك كان صحيحاً.

قالت بربارة، وهي تومئ برأسها على مهل:

– أعرف أنّك لم تعتقد ذلك. وربّما كان ذلك هو الصواب على وجه الدقّة، ربما كنت مخطئة.

حدّقت في قدح الجن، الذي كانت تحتسيه من جديد، وأضافت:

– ومع ذلك، فإن ما هو صحيح، يا مارتن، وما هو أسوأ: نَظَرُك إلى نفسك على أنّك تحصيل حاصل.

واصلت الإيماء برأسها، دون أن تنظر إليه، كأنّها اكتشفت دوراً فلسفياً دائراً مثيراً للاهتمام وإن كان يدعو إلى القلق. وكانت عندما تغضب منه، وخاصة إذا كانت على شيء من السّكر، كانت تومئ برأسها وتتحدّث على هذا النحو المفرط في التحذلق، وكأنّها فكّرت بالفعل كثيراً في الموضوع المطروح، وأرادت أن توضح الاستنتاجات التي وصلت إليها، باعتبارها إسهاماً في معطيات الفطرة السليمة. وقد أطلق أوستن على هذه العادة «قراءة محتويات قنبلة مولوتوف». وكره هذه العادة، وتمنى ألا تدرج عليها بربارة، ولكن لم تتح لحظة طيّبة لطرح هذا الموضوع قط.

قال، بصوت جَهِد في أن يكون أكثر ما يستطيعه اتساماً بالطابع العادي والمألوف:

– إنّني آسف، ولكنّني لا أحسب أنّني أعرف ما تقصدينه بذلك.

تطلّعت إليه بربارة بفضول، وقد بدت ملامحها التي جعلت منها ملكة جمال لامبدا – تشي حادّة ومدبّبة الزوايا مثل كلماتها، وقالت:

– ما أقصده: أنّك، فيما يتعلّق بك أنت، تحسب من غير الممكن تغييرك، أقصد تغيير أعماقك. إنك تنظر إلى نفسك كمُعْطًى نهائي، وأن ما تفعله في بلد أجنبي تذهب إليه لن يكون له أثر عليك، ولن يَدَعَكَ إنساناً مختلفاً، ولكن ذلك ليس صحيحاً، يا مارتن، لأنّك إنسان مختلف، وفي حقيقة الأمر أنّه لا سبيل إلى الوصول إليك، وقد غدوت على هذا النحو لوقت طويل، لعامين أو ثلاثة أعوام، وقد حاولت مسايرتك وجعلك سعيداً، لأنّ جعلك إنساناً سعيداً كان على الدوام يسعدني، ولكنه لا يسعدني الآن، لأنّك تغيّرت، ولست أشعر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بأنّ بمقدوري التواصل معك، أو بأنّك تدرك ما أصبحت عليه، وبصراحة فإنّني لا أكترث لذلك، وكل ما هنالك أن هذا كلّه خطر لي بينما كنت أطلب بحثاً حول عنوان في أصيل اليوم. إنني آسفة لكون هذا مبعث مثل هذه الصدمة.

تنشقّت بربارة، وتطلّعت إليه، وبدا أنها تبتسم. لم تكن موشكة على البكاء. وإنّما كانت الآن باردة العينين موضوعية المظهر، كأنّها كانت تبلغه بوفاة قريب لهما، لا تربطهما به كبير صلة، ولا يكترث له أيّ منهما كثيراً.

– يؤسفني سماع ذلك.

قالها أوستن على مهل، وهو يرغب في أن يظلّ معتصماً بالهدوء نفسه الذي اعتصمت به، وإن لم يكن بالقدر نفسه من البرود. ولم يَدْر على وجه الدقة ما الذي يعنيه هذا أو ما الذي طرحه، فهو لم يعتقد أنّه أقدم على شيء خاطئ، وما من شيء يستطيع تذكّره حدث قبل عامين أو ثلاثة أعوام، ولم تترك جوزفين بليار إلاّ أثراً محدوداً عليه، ولكنّه أثر سينقضي شأن أي شيء آخر، وقد بدا له أن الحياة ماضية في سبيلها، وحدث نفسه بأنّه في حقيقة الأمر كان يتصرّف بشكل طبيعي على نحو ما كان يأمل.

ولكن هل كان معنى هذا أنّها قد حصلت على كل ما اعتزمت الحصول عليه ونفضت يدها منه؟ حدّث نفسه بأنّ ذلك من شأنه أن يكون صدمة وشيئاً لا يريد له الحدوث، أم أنّها لا تقصدة إلاّ القول إنه بحاجة إلى شحذ همّته، وأن يغدو أكثر قابلية للتواصل معه، وأن يعود إلى أسلوب جميل كان يتبعه ويحظى بموافقتها؛ أسلوب كان يمكن أن يقول إنّه مايزال يمضي عليه، أو ربما كانت تقول فحسب إنها تعتزم أنّ تغيّر نفسها بشكل فجائي وكبير الآن، وأن تكون أقلّ تسامحاً، وأقلّ اهتماماً به، وأقلّ حبّاً له، وأن يكون لها مزيد من الاهتمام بنفسها، وأن زواجها في سبيله إلى المضي على طريق أكثر تعادلاً – شيء آخر لم يرتح إلى صداه.

جلس في غمار الصمت الذي أتاحته له الآن لهذا الغرض على

وجه الدقّة، ومن المؤكّد أنّه كان بحاجة إلى طرح استجابة لما قالته، وكان في حاجة إلى أن يرد بذكاء وبوضح على هجماتها، وأن يظهر تعاطفه مع وجهة نظرها المحتدمة، ولكنه بحاجة كذلك إلى الصمود من أجل نفسه، بينما يقدم مخرجاً عملياً من هذا المأزق الجلي، وبتعبير آخر فقد كان من المطلوب منه القيام بالكثير. وفي جوهر الأمر، فقد كان من المتوقّع منه أن يحلّ كلّ شيء، وأن يأخذ بوجهتي النظر كلتيهما – وجهة نظره ووجهة نظرها – ويصل بينهما على نحو من الأنحاء، بحيث يعاد كلّ شيء إلى ما كان عليه، أو يُجعل أفضل ممّا كان عليه، بحيث يغدو كل منهما أكثر سعادة، ويمكنه الشعور بأنه إذا كانت الحياة سلسلة من الحروف الخطيرة نتسلّقها بصعوبة، فإنّك، على الأقلّ، قد نجحت بالفعل، وجعلت مكافآت السعادة الوافرة من الكوابيس شيئاً جديراً باجتيازه.

حدّث أوستن نفسه بأنّ تلك رؤية للحياة تستحق الإعجاب. كانت رؤية سليمة، تقليدية، تنتمي بصورة مطلقة إلى صميم التقاليد الأميركية، ورؤية تبعث بالجميع إلى المذبح، واثقين من أنفسهم والنجوم ملء عيونهم، وكانت رؤية تبنّتها بربارة على الدوام، وقد حسدها عليها دائماً، فقد كانت بربارة تنتمي إلى صميم التقاليد الأميركية، وكان ذلك من الأسباب الرئيسية التي جعلتها تفتنه قبل سنوات طويلة، ومن أسباب معرفته بأنّها ستكون أفضل إنسانة يمكن له أو لأي شخص آخر أن يحبّها. وكل ما في الأمر: أنه لم يتبيّن في تلك اللحظة ما الذي يمكنه القيام به لجعل رغباتها تتحقّق، لو أنّه، في حقيقة الأمر، كان يعرف أيّ شيء عمّا كانت عليه هذه الرغبات، ولهذا فإنّ ما قاله، بعد الإقرار بأنّه آسف لِسَماع ما قالته بالفعل، كان:

– كلّ ما في الأمر هو أنّني لا أعتقد أنّ هناك أيّ شيء يمكنني القيام به حيال ذلك. أتمنّى لو كان هناك ما يمكنني القيام به، إنّني آسف حقاً.

قالت بربارة، وهي تومئ من جديد بثقة بالغة، وبحسم شديد:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

– إذن، فأنت حمار، وأنت كذلك زير نساء، وأنت نملة، ولم أعد أرغب في أن أكون زوجة لأيّ من هذه الأشياء، ولذا...

احتست رشفة كبيرة أفرغت بها قدح الجن الذي كانت تشربه به، ووضعت القدح الزجاجي الغليظ بشدّة على منشفته الصغيرة المبلّلة، وقالت مرّة أخرى، كما لو كانت معجبة بصوتها:

– ولذا خراء عليك، ووداعاً!

وبهذا القول انبعثت واقفة، ومضت بثبات بالغ، وبصورة مباشرة، خارجة من مطعم «هاي – نان» (بحيث أنّ أوستن لم يتساءل: هل هي في حالة تمكّنها من قيادة سيارتها). واختفت عند المنعطف الخيزراني، فيما كان لسان آخر من اللهب الأصفر ينبعث في هواء قاعة تناول العشاء، وصوت هسس عال حار آخر ينبعث، وهتاف «أوه ه ه» آخر يصدر عن متناولي الطعام المندهشين، بل إن زوجين منهم صفّقا.

ساور أوستن الشعور بأنّ تلك كانت، على وجه اليقين، استجابة مبالغاً فيها من جانب بربارة، فهي، في المقام الأوّل، لم تعرف شيئاً عن جوزفين بليار لأنّه ليس هناك ما يعرف، وليست هناك حقائق تضعه موضع التجريم، وكلّ ما هنالك أنّها كانت تظن، وبشكل ظالم، وكان شعورها نحو نفسها شعوراً سيئاً في الغالب، وكانت تأمل في جعله مسؤولاً عن ذلك. وفي المقام الثاني لم يكن من اليسير لك أن تقول الحقيقة المتعلّقة بمشاعرك عندما لا تكون هذه الحقيقة هي ما يرغب شخص تحبّه في أن يكون هو الحقيقة. وقد بذل أقصى ما في وسعه للقول إنّه ليس على يقين ممّا يمكّنه القيام به لجعلها سعيدة، وكان ذلك منطلقاً يمكن البدء منه. وقد فكّر أن يقينها الذي بدأت به الحديث لم يكن إلاّ استراتيجية تتبنّاها بصدد موقع تتخذه، وأنّه ربما كان في الأفق عراك كبير يوشك أن يندلع، ولكنه عراك يمكنهما تسويته على امتداد الأمسية، وينتهي بتبادل الاعتذارات، ويمكنهما بعد ذلك أن يشعرا بالتحسّن والانعتاق. وقد مضى الأمر على غرار ذلك في الماضي، عندما أغوته بصورة مؤقّته امرأة قابلها

بعيداً عن الوطن. وحدّث نفسه بأنّ تلك أحداث عادية.

كانت النساء في بعض الأحيان يجلبن له نوعاً من المشكلات، وقد استمتع بصحبتهن، واستمتع بسماع أصواتهن، في غمار معرفته لحياتهن شبه الحميمة، ومعرفته لحياتهن اليومية. ولكن محاولاته لمعرفتهن غالباً ما خلّفت في نفسه شعوراً بالاستغراب، وشعوراً بغرابة الأطوار - كأنّما لديه أسراراً لا يودّ الحفاظ عليها - كما خلّفت في نفسه، من ناحية أخرى، ومن حياته مع بربارة بصفة خاصة، بقيةً غريبة لم تُقَدَّر حق قدرها تماماً، ومضت على نحوٍ مّا إلى الهدر.

ولكن بربارة، بمغادرتها على هذا النحو، تجاوزت كلّ الحدود، وأصبح الآن كلّ منهما يعيش وحده في شرنقة صغيرة منفصلة من المرارة ومحاولة تفسير الذات، وذلك موضوع لا تمضي منه الأمور إلى التحسّن وإنّما إلى التفاقم. الكلّ يعرف ذلك. إنّها هي التي أوجدت هذا الموقف من العدم، وليس هو، ويتعيّن عليها أن تتعايش مع عاقبة ذلك، أيّاً ما كان مدى تفاقمها أو ضآلتها. حدّث نفسه بأن العكوف على الشراب له صلة بكلّ هذا، عكوفه وعكوفها. كان هنالك الكثير من التوتر المحوّم في تلك اللحظة، وكان العكوف على الشراب استجابة طبيعية، ولم يكن يعتقد أنّ أيّاً منهما - ولا سيما هو - يواجه مشكلة شراب باعتبارها كذلك. ولكنه عقد العزم، وهو جالس في البار المصنوع من خشب الساج أمام إحدى المرايا، على أنّه سيقلع عن الشراب بمجرّد تمكّنه من ذلك.

عندما خرج إلى رحاب الظلام حيث ساحة إيقاف السيّارات، لم يكن هناك أي وجود لباربره. وكانت نصف ساعة قد انقضت على خروجها، وظنّ أنّه قد يجدها في السيارة حانقة أو غافية. كانت الساعة الثامنة والنصف، والهواء بارد، وطريق أولد أورنشارد يغصّ بالسيارات المنطلقة.

حينما عاد بالسيارة إلى الدار، كل الأنوار مطفأة، ولا وجود لسيارة بربارة، التي كانت قد تركتها في مرآب مكتبها عندما أقلّها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من هناك. مضى في الدار يضيء المصابيح إلى أن وصل إلى غرفة نومهما، فتح الباب بهدوء حتى لا يوقظها إذا كانت نائمة هناك فوق أغطية الفراش، ولكنها لم تكن هناك. وكانت الغرفة مظلمة باستثناء الضوء المنبعث من الساعة الرقمية. كان وحيداً في الدار ولم يدر أين عساها تكون، وكلّ ما يعرفه احتمال هجرتها له، ومن المؤكد أنها غاضبة، وآخر ما قالته هو: «خراء عليك». غادرته خارجة من المكان، وهو أمر سبق أن فعلته، وقد فهم أنّ شخصاً ما يستنتج من سلوكها أنّها تهجره.

صبَّ لنفسه كوباً من الحليب في المطبخ الساطع الضوء، وفكّر في الإدلاء بشهادته في المحكمة عن هذه اللحظات والحقائق عينها وكذلك الحدث المقيت الذي وقع في مطعم «هاي - نان» وآخر الكلمات التي تفوّهت بها زوجته، في محكمة لقضايا الطلاق. وتصوّر نفسه جالساً إلى إحدى الموائد مع محاميه، وبربارة جالسة إلى مائدة مع محاميها، وكلّ منهما يتطلّع إلى الأمام في مواجهة منصّة القاضي. وفي حالتها الذهنية الراهنة لن تقتنع بربارة برؤيته للقصة، ولن يتغيّر موقفها، أو تقرّر نسيان الأمر برمته وسط قاعة المحكمة بمجرّد تحديقه في عينها وقول الحقيقة ولا شيء غيرها، وحدّث نفسه بأنّه على الرغم من ذلك فمن المؤكّد أنّ الطلاق ليس بالحلّ الجيّد.

مضى إلى الباب الزجاجي المنزلق الذي يفضي إلى الفِناء الخلفي وإلى أفنية جيرانه غير المسوّرة، والتي تسبح كلها الآن في الظلام، وأضواء دارهما الخافتة وانعكاس خزانات المطبخ وشخصه الممسك بكوب الحليب ومائدة الأفكار والمقاعد كلّها اندمجت معاً وتوحّدت في ديوراما شبه مضاءة.

حدّث نفسه بأنّه، من ناحية أخرى (وبما أن الاحتمال الأوّل هو محاولة متخبّطة للطلاق تتبعها مصالحة جهمة بمجرد إدراكهما بأنّهما ليس لديهما من الأعصاب ما يتجاوزان به إجراءات الطلاق)، حدث نفسه بأنه سيخرج من إطار حياتهما.

إنّه لم يغادر المشهد، وإنّما هي التي فعلت ذلك، لم يوجّه أيّ تهديدات أو شكاوى أو إعلانات بمواقف مريرة وسكرى ومفعمة بالشتائم، أو أي خروج إلى رحاب الليل على طريقة المسلسلات التلفزيونية التي لا تنتهي، وإنّما هي التي فعلت ذلك. لم يرغب في أن يكون وحيداً، وإنّما هي التي رغبت في أن تكون وحيدة، ونتيجةً لذلك، فإنّه حرّ، حرّ في القيام بأيّ شيء يريده، دون طرح أسئلة أو ردود، ودون شكوك أو اتّهامات، ودون انصاف حقائق تفسيرية.

في الماضي، عندما كان يتشاجر مع بربارة، ويشعر بأنّه يود أن يستقل السيّارة، ويمضي بها إلى مونتانا أو الاسكا، للعمل لحساب دائرة الغابات، دون أن يكتب قط رسائل لها أو يتّصل بها هاتفياً، ودون أن يكلّف نفسه، رغم ذلك، عناء إخفاء هويّته أو أماكن إقامته – كان يجد أنّه ليس بوسعه أن يواجه لحظة الرحيل الفعلية أبداً. وما كانت قدماه لتتحركا من موضعهما، وقد قال وأحسّ، فيما يتعلّق به، إنّه فخور بأنّه ليس بارعاً في عمليات الرحيل، وكان يعتقد أنّ عملية المغادرة تولد الشعور بالخيانة – بخيانة بربارة، بخيانة نفسه، وقد قال لها انك لا تتزوجين شخصاً لكي تهجريه. وفي حقيقة الأمر إنّه لم يكن بمقدوره حتى التفكير في الرحيل تفكيراً جدياً. وفي ما يتعلّق بالعمل في دائرة الغابات في الاسكا كان في مقدوره أن يتآمر حتى نهاية اليوم الأوّل – عندما كان التعب يستبدّ به ويحسّ إعياءً من العمل الشاق، ولكن بخلو ذهنه من عناصر القلق. وبعد ذلك كانت الحيرة تداهمه حول ما سيحدث عقب ذلك. يوم شاق آخر، كالذي سبقه، وأدرك أن معنى ذلك: عدم رغبته الرحيل، وأنّ حياته وحبّه لبربارة أقوى من أن يسمحا له بالرحيل. ذلك أنّ الرحيل هو ما يقوم به الضعفاء. ومن جديد، استَحْضَر ذكرى رفاقه في الجامعة، باعتبارهم الأمثلة السيئة – الجبناء الذين يبادرون بالرحيل، فهم جميعاً قد افترقوا عن زوجاتهم بالكلام، ونثروا الأطفال من كل الأعمار على امتداد الخارطة، مرسلين بالبريد، بصورة دَوْرِيّة، وبكثير من التجهّم، شيكات إلى دالاس وسياتل وأتلانتا، وهم يعضون بنان الندم. لقد رحلوا، وهم الآن يحسّون غير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قليل من الأسف. ورغم ذلك فإنّ حبّه لبربارة كان جديراً بما يجاوز ذلك بكثير. وكانت قوّة حيوية في أعماقه تعتمل على نحو أكثر قوّة وزخماً من أنْ تسمح له بالرحيل، وذلك إنّما يعني شيئاً، شيئاً باقياً ومهماً. وأحسّ أنّ ذلك هو ما دارت حوله كل الروايات العظيمة التي قدّر لها أن تؤلف.

وكان قد خطر له، بالطبع، أنّه، في ما هو عليه، لا يعدو أن يكون جباناً منكمشاً في موضعه من الخوف، يوغل في الكذب، لا يجرؤ على مواجهة الحياة منفرداً، ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه في غمار عالم معقّد حافل بعواقب أعماله. وعلى الرغم ن أنّ تلك لم تكن إلاّ طريقة تقليدية في فهم الحياة، رؤيةً أخرى مستمدّة من المسلسلات التلفزيونية، يعرف جلية الأمر المتعلّق بها، إلاّ أنّه، بطبيعته، كان ممن يمكثون في مواضعهم. كان رجلاً من النوع الذي لا يتعيّن عليه القيام بما هو جلي وواضح للعيان، وسيمكث هناك ليظلّ مهيمناً على العواقب المضطربة لألوان الكدح في الحياة. وحدّث نفسه بأنّ ذلك هو موطن القوّة الفطري الوحيد في شخصيته.

الآن فحسب، وعلى نحو غريب، كان في حالة من الضياع، و«الهناك» الذي وعد بأن يمكث فيه كان منفصلاً، على حين غرة، ومتحوّلاً إلى أجزاء، ومتراجعاً. وكان ذلك أمراً باعثاً على الشعور بالقوّة، بل الحقيقة أنه، وإن بدت بربارة وكأنها هي التي تُحْدِث هذا الشعور، فقد أحسّ أنّه ربّما كان السبب فيه، على الرغم من أنه كان شعوراً حتمياً كذلك، ومقدّراً له أن يثور فيما بينهما، أيّاً مّا كان السبب أو النتيجة.

مضى إلى عربة المشروبات الصغيرة في المختلى، وصبّ بعضاً من السكوتش في الحليب، وعاد، وجلس في مقعد المطبخ أمام الباب الزجاجي المنزلق. ومضى كلبان يسيران في خيلاء عبر العشب في مستطيل الضوء المرتمي من النافذة. وبعد ذلك بوقت قصير أقبل كلبان آخران أحدهما الكلب الاسبنيلي الذي غالباً ما سمعه ينبح ليلاً، ثم أقبل كلب صغير وحيد منفوش الشعر عند مؤخّر العنق،

وهو يتشمّم الأرض وراء الكلاب الأربعة الأخرى. وتوقّف هذا الكلب، وحدّق في أوستن، وطَرَفَ بعينيه، ثم مضى مختالاً خارج مستطيل الضوء، واختفى عن الأعين.

مضى أوستن يتخيل بربارة وقد نزل بفندق باهظ الإيجار في قلب المدينة، وعكفت على احتساء الشمبانيا، طالبة سلطة «الكوب» من القائمين على خدمة الغرف، مُعْمِلة ذهنها في الأمور ذاتها، التي راح يفكّر هو فيها، ولكن ما بدأ يُحسّه، بالفعل الآن، وعلى نحو جهم، أنّ ما يعقب أيّ شيء قام به على امتداد وقت طويل للغاية كان، في نهاية المطاف، بعيداً عن أن يمنحه أيّ سرور. وعلى الرغم من النيّات الحسنة، ومن حبّه لبربارة حبّاً أحسّ أنّ قلّة من الناس قد عرفته، فإنه اعتبر أنّه لا سبيل إلى تخطئة القول بأنّه لا جدوى منه الآن لزوجته. لقد كان سيّئاً معها، وكما لو أنّ عجزه المحدود عن إرضائها الذي عبّرت عنه صراحة، وربما اساءات مشروعة جزئياً، ليس برهاناً كافياً على إخفاقه، فمن المؤكّد أن حكمها كان «أنت حمار». وقد وصل إلى أنها كانت على حق، فقد كان حماراً بالفعل، وكان أشياء أخرى من هذا القبيل أيضاً، وقد كره التفكير في ذلك. إنّ الحياة لم تغيّر اتجاهها، وإنما أنت اكتشفت أنها قد غيّرته في وقت لاحق. اكتشفت ذلك الآن. وقد شعر بالأسف حيال ذلك كأي شيء يمكنه على الإطلاق أن يحس الأسف حياله، ولكنه لم يستطع الحيلولة دون أن يغمره هذا الشعور، ولم يحب ما لم يعجبه، ولم يستطع اجتراح ما عجز عن القيام به.

غير أنّ ما كان يمكنه القيام به هو الرحيل، الرجوع إلى باريس، في التوّ، الليلة إذا كان ذلك ممكناً، ويقيناً قبل أن تعود بربارة إلى الدار، وقبل أن يبتلعهما المستنقع من جديد، ويتعيّن عليه أن يخوض فيه مجدّداً، وقبل أن يعود إلى المشكلات المتعلّقة بكونه حماراً، وإلى حياتهما. وأحسّ كأنّ سلكاً كهربائياً رفيعاً من أسلاك الضغط العالي يمتدّ بين أصابع قدميه وقفاه قد اجتذبه إصبع خفي بقوّة، ودفع به إلى الشعور بذبذبة باردة، وبتشابك متوهّج يشعّ منساباً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى معدته، وخارجاً من أطراف أصابعه.

جلس في مقعده مستقيم الظهر. كان في طريقه إلى الرحيل. وأحس، فيما بعد، الفظاعة والحرمان والانكسار، وربما أحسّ التشرّد أيضاً، وأنّه يحيا على إعانة اجتماعية، وأنّه مريض يوشك على الموت من جرّاء مرض نابع من وهن العزيمة. ولكنه يُحسّ الآن أنّه يومض شرراً ويتوهّج ويتقافز من فرص الانفعال. وحدّث نفسه بأنّ ذلك لن يدوم إلى الأبد، بل قد لا يدوم طويلاً، ومن شأن أيّ صوت يأتيه من باب سيارة أجرة، وهو يغلق في الشارع، أن يفجّر المسألة الهشّة بأسرها، ويضحي بالفرصة المتاحة أمامه للتصرّف.

إنبعث واقفاً، ومضى مسرعاً إلى المطبخ، واستدعى بالهاتف سيارة أجرة، ثم ترك سماعة الهاتف مدلاة من موضعها، ومضى عائداً عبر الدار، متفقّداً كلّ الأبواب والنوافذ للتيقّن من أنها موصدة، وسار إلى غرفة النوم الخاصة به وبربارة، وأضاء النور، وأخرج حقيبته المزدوجة من تحت الفراش، وفتحها، وشرع في وضع بذلتين بها، وفي الجانب الآخر الملابس الداخلية والقمصان، وزوجاً آخر من الأحذية، وحزاماً، وثلاث ربطات عنق ذات خطوط متوازية، بالإضافة إلى علبة أدوات الحلاقة التي كانت ماتزال مليئة. واستجابة لطارح سؤال خفي، قال بصوت عال، وهو واقف في غرفة النوم:

– لم أجلب الكثير حقّاً. وكلّ ما هنالك أنّني وضعت بعض الأغراض في حقيبة.

أقفل الحقيبة، وحملها إلى غرفة الجلوس. وكان جوار سفره في القمطر الصغير، فَدَسَّهُ في جيب بنطلونه، وأخرج معطفاً من خزانة الثياب المجاورة للباب الخارجي – وهو عبارة عن سترة مطاطية طويلة اشتراها من قائمة مشتريات ترسل بالبريد – وارتداه، والتقط حافظة نقوده ومفاتيحه، ثم التفت، وتطلّع إلى الدار.

كان في سبيله إلى الرحيل، وسيغادر في غضون عشرين ثانية،

ومن المحتمل انّه لن يقدر له ابداً أن يقف في هذا الدهليز مرّة اخرى، متفحصاً بناظريه هذه الغرف، وشاعراً بما يحسُّه الآن. ربّما سيكون بعض هذا على ما هو عليه. لا بأس، ولكن ليس كلّ شيء، وكان الأمر يسيراً للغاية، في لحظة تكون في غمار حياة بأسرها تماماً، وفي اللحظة التالية تخرج منها كلية. وكل ما يلزمك هو جمع اشياء محدودة معاً.

رسالة قصيرة. أحسّ انّه ينبغي أن يترك رسالة قصيرة، ومضى بسرعة عائداً إلى المطبخ، واخرج دفتر قائمة مشتريات البقالة من احد الأدراج. وكتب على ظهره «العزيزة ب». ثم لم يعد متأكّداً، على وجه الدقّة مما يتعيّن عليه المضي في كتابته. إنّ كتابة شيء له مغزاه يمكن أن تستغرق صفحات طويلة من الورق. ثم ستكون عبثية ولا اهمية لها معاً. امّا كتابة شيء موجز، فسوف تكون عاطفية او مثيرة للسخرية، وتظهر بطريقة جديدة تماماً أيُّ حمار هو، وهو استنتاج اراد لهذه الرسالة أن تفنده تفنيداً لا يمكن قلبه إلى النقيض. قلب الصفحة. وكانت قائمة مشتريات بقاله مطبوعة كعينة هنالك، مع وجود فراغات خالية لوضع علامات فيها بالقلم الرصاص:

خبز

حليب

كورنفليكس

بيض

خضر

همبرغر

زبد

جبن

أخرى

حدّث نفسه بأن في وسعه أن يضع إشارة أمام «اخرى» ويكتب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى جـــوارها «باريس». ومن المؤكّـــد أنّ باريس تندرج تحت بند «أخرى»، على الرغم من أنّ الحمار وحده من شأنه أن يكتب شيئاً كهذا. قلب الدفتر مجدّداً إلى الجانب الذي فيه «العزيزة ب». لم يكن شيء مما استطاع أن يفكر فيه مناسباً، فقد بدا كلّ شيء وكأنّه يريد أن يقف مدافعاً عن حياتهما، ولكنّه لم يستطع القيام بذلك، فحياتهما هي حياتهما، ولا سبيل إلى تمثيلها من خلال أيّ شيء غير حياتهما نفسها، وليس من خلال شيء يكتب بسرعة على ظهر دفتر قوائم مشتريات البقالة. أطلقت سيّارة الأجرة التي طلبها العنان لنفيرها في الخارج. ولسبب لم يدر كنهه، مدّ يده، وأعاد سماعة الهاتف إلى موضعها. وفي التوّ تقريباً، دوى رنين الهاتف عالياً وحادّاً، كطرقات نحاسية، قد ملأ المطبخ الأصفر، كأنّما الجدران صنعت من معدن. وكان في وسعه أن يسمع الهواتف الأخرى تدوي في الغرف الأخرى. وعلى حين غرّه بدا داخل الدار فوضوياً على نحو لا يطاق. فكتب مسرعاً تحت «العزيزة ب» ما يلي: «سأتّصل بك هاتفياً. أحبك. م.». ووضع الرسالة القصيرة تحت الهاتف المدوي، ثم سارع إلى الباب الأمامي، وأمسك حقيبته بقوّة، وغادر داره الخاوية، إلى ليل الضاحية الربيعي الرقيق.

- ٦ -

لم يتّصل أوستن هاتفياً بجوزفين بليار، خلال الأيّام القليلة الأولى، التي خفضت الروح المعنوية، والتي قضاها في باريس، فقد كانت هناك أمور أكثر إلحاحاً، منها: أن يرتّب، عبر اتصالات هاتفية فظيعة، منحه إجازة من عمله في بيع الورق. وقال مستشعراً غثياناً سريعاً لرئيسه:

– أسباب شخصية.

وشعر باليقين، فيما هو يقولها، بأنّ رئيسه يستنتج أنّه قد أصيب بانهيار عصبي.

قال رئيسه، فريد كاروثرز، بمرح بعث الضيق في نفس أوستن:

– كيف حال برباره؟

قال:

– في خير حال. إنها في خير حال. إتّصل بها بنفسك! فهي تودّ سماع صوتك. ثم أنهى المكالمة، معتقداً بأنّه لن يُقَدَّر له أن يرى فريد كاروثرز ثانية أبداً، ولم يكترث بذلك على الإطلاق، وكلّ ما في الأمر أنّ صوته تردّد مفعماً باليأس، وهو بالضبط ما لم يرد أن يبدو عليه.

رتب أمر قيام مصرفه في شيكاغو بإرسال النقود إليه، محدّثاً نفسه بأنّ المطلوب ما يكفي لستة أشهر. عشرة آلاف دولار. واتّصل بأحد الشخصين اللذين كان يعرفهما في باريس، وهو زميل سابق في لامبدا تشي كان شاذاً جنسياً، ويطمح إلى أن يكون روائياً،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويقيم في مكان ما في حي «نوت». وقد سأله هذا الزميل القديم، ديف، عمّا إذا كان هو نفسه الآن شاذّاً، ثم ضحك من أعماق قلبه. وغم ذلك، فإنّه في نهاية المطاف فكّر أنّ له صديقاً، له بدوره صديق. وبالفعل، وبعد ليلتين لم يشعر خلالهما بالاستقرار في فندق لامونستير القديم الذي كان ينزل به، ساوره في أثنائهما القلق على المال، والقلق من إعطائه، ثم ساوَرَهُ إعطاؤه مفتاح شقّة فخمة يجمع ديكورها بين المعدن والمخمل مع مرايا هائلة تكسو سقف غرفة النوم، في قلب شارع بونابرت، غير بعيد عن مقهى دو ماجو، الذي يفترض أن سارتر كان يحبّ التفكير وهو جالس فيه تحت أشعّة الشمس.

طوال الجانب الأعظم من هذه الأيام الأولى – وهي أيام مشرقة لطيفة من أيام منتصف ابريل – كان أوستن يشعر بالاعياء والارهاق ويبدو مريضاً وممسوساً في مرآة الحمام. ولم يرغب في رؤية جوزفين، وهو في هذه الحالة. إنه لم يعد إلى بلاده إلاّ ثلاثة أيام، ثم في غضون أمسية متشنّجة تشاجر مشاجرة محتدمة مع زوجته، ومضى إلى المطار، وانتظر طوال الليل رحلة إلى باريس، واحتلّ مقعداً في منتصف الطائرة بين طفلين فرنسيين إلى أورلي. كان الأمر كلّه جنوناً. ومن المؤكّد أنّ جزءاً كبيراً من هذا هو الجنون بعينه. ربما كان يعاني من انهيار عصبي، وكان أكثر جنوناً من أن يدرك ذلك، وربما يتعيّن على بربارة وطبيب نفسي القدوم لإعادته إلى داره بعد تخديره بمخدّر قوي ووضعه في قميصٍ مما تُقَيِّد به حركة المجانين. ولكن ذلك لن يحدث إلاّ فيما بعد.

قالت بربارة ببرود، عندما اتصل بالبيت أخيراً:

– أين أنت؟

قال:

– في أوروبا، سأمكث بعض الوقت.

– ما أجمل ذلك عندك!

قالتها، وكان بوسعه القطع بأنّها لم تكن تعلم ما الذي يمكن أن

يكون عليه رأيها حيال هذا كلّه. وأسعده أن يحيّرها، على الرغم من أنّه كان يعلم كذلك أنّ هذا أمرٌ طفولي.

قال:

– قد يتصل بك كاروثرز هاتفياً.

قالت بربارة:

– تحدّثت معه بالفعل.

– إنّني مُوقِن أنّه يحسبني معتوهاً.

قالت، دون أن تطرح ما كان يحسبه:

– لا، إنّه لا يحسبك كذلك.

خارج الشقّة كانت حركة المرور في شارع بونابرت حافلة بالضجيج، فابتعد عن النافذة. كانت جدران الشقّة من جلد مزابر يجمع بين اللونين الأحمر والأخضر مع ملصقات متألّقة ذات طابع تجريدي تبدو فيها أنابيب من الصلب وسجاد وأثاث من المخمل الأسود الكثيف. ولم يكن يدري من عساه يكون مالك هذه الشقّة، غير أنّه أدرك في تلك اللحظة أنّ المالك ربما كان في الغالب قد مات.

– هل تعتزمين رفع دعوى طلاق؟

قالها أوستن، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي استخدمت فيها هذه الكلمة، ولكنها كانت شيئاً لا مفرّ منه بحسب اعتقاده، وقد أرضاه بشكل عابر أنّه كان أوّل من ألقى بها في الحلبة.

قالت بربارة:

– في الحقيقة لست أدري ما الذي أعتزم القيام به، والظاهر أنّه ليس لي زوج الآن.

أوشك أن ينفجر مدمدماً بأنّها هي التي هجرته لا هو، وأنها كانت السبب في ما حدث. ولكنّ ذلك لم يكن صحيحاً تماماً، وعلى أيّ حال فإنّ قول أيّ شيء في هذا الصدد من شأنه أن يكون بداية سجال لم يكن يريد الدخول فيه، وما من أحد يستطيع خوضه عبر مثل هذه المسافة، ولن يكون إلا شجاراً وجأراً بالشكوى وحَنَقاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأدرك على حين غرّة أنّه ليس لديه ما يقوله، وأحسّ الضيق، وكان كل ما يريد أن يعلنه أنّه على قيد الحياة، ولم يمت، وأنّه الآن على أهْبة إنهاء المكالمة.

– إنك في فرنسا. أليس كذلك؟

– بلى، ذلك صحيح. لماذا؟

– حسبت ذلك.

قالتها بربارة، كأنّما مجرّد الفكرة تثير اشمئزازها، أضافت:

– ولم لا؟ صحيح؟

قال أوستن:

– صحيح.

عد إلى البيت عندما تمل ما أنت في سبيله أيّاً مّا كان، وأيّاً مّا كان اسمها.

قالتها باعتدال بالغ.

قال أوستن:

– قد أفعل ذلك.

قالت بربارة:

– وقد أكون في الانتظار، فالمعجزات ماتزال تحدث، ومع ذلك فقد فتحت عيني الآن على الحقائق.

– عظيم.

قالها أوستون، وشرع في قول شيء آخر، ولكنّه ظنّ أنّه سمعها وهي تضع سماعة الهاتف في مكانها. وأضاف:

– مرحباً؟ بربارة، أما تزالين على الخطّ؟

– أوه، إذهب إلى الجحيم!

قالتها بربارة، ثم أنهت المكالمة.

على امتداد يومين قام أوستن بجولات طويلة ومجهدة، سيراً على

الأقدام، في اتجاهات اختارها كيفما اتّفق، وأدهش نفسه في كلّ مرّة من خلال المكان الذي يصل إليه، ثم كان يمضي بسيارة أجرة عائداً إلى شقته. وقد بدت غرائزه المتعلّقة بالمكان كلّها أبعد ما تكون عن أن تكلّل بالتوفيق، الأمر الذي أثار إحباطه. لقد ظنّ أنّ ميدان الكونكورد أبعد عن شقّته ممّا كان عليه بالفعل، وفي الاتجاه المضاد. ولم يستطع أن يتذكّر في أيّ اتجاه ينساب النهر. وبمزيد من التعاسة واصل المرور بالشوارع ذاتها، ودار السينما التي تعرض فيلم «سينما باراديزيو»، وأكشاك الصحف عينها مراراً وتكراراً، كأنما يمضي في دائرة بلا توقّف.

اتّصل هاتفياً بصديقه الآخر، وهو رجل يدعى هانك بولارد، عمل في وقت من الأوقات لحساب شركة ليلنتال، ولكنّه قرّر أن يشرع في الانطلاق بشركة يملكها تعمل في مجال تكييف الهواء في «فيتري». وكان متزوّجاً من فرنسية، ويقطن إحدى الضواحي. ووضعا خططاً لتناول طعام الغداء معاً، ثم ألغى هانك الموعد لأسباب تتعلّق بالعمل – رحلة طارئة خارج المدينة. وقال هانك إنّما ينبغي أن يرتّبا موعداً آخر، ولكنّه لم يتحدّث عنه بصورة محدّدة. وانتهى الأمر بأوستني إلى تناول الغداء وحيداً في مطعم غال في شارع مونبارناس، جالساً وراء نافذة زجاجية، محاولاً القراءة في «اللوموند» ولكن عزمه ثُبِّط مع تراكم الكلمات التي لم يفقه لها معنى. وحدّث نفسه بأنّ في وسعه أن يقرأ «الهيرالد تريبون» ليتابع ما يجري في العالم، ويدع لغته الفرنسية يشتدّ ساعدها تدريجياً.

بل كانت هناك أعداد أكبر من السياح مقارنةً بأسبوع مضى، عندما كان هنا قبل سفره، وكان الموسم السياحي في مستهلّه، وحدث أنّ الفرنسيين والأميركيين يبدون متشابهين تماماً، ولا يميّز بينهم إلاّ اللغة وبعض الخصائص التي لا يمكنك رؤيتها. جلس وراء طاولته الدائرية الصغيرة البعيدة عن حشد المارّة، وراح يحدّث نفسه بأنّ هذا الشارع يغصّ بالذين يسيرون وحلمهم القيام بما كان يقوم به تماماً: التقاط الحقائب، والمجيء إلى هنا، وترك كلّ شيء، والجلوس في المقاهي، والسير في الشوارع، وربما تقرير العكوف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على كتابة رواية، أو رسم لوحات مائية، أو مجرّد الانطلاق بشركة لتكييف الهواء، مثل هانك بولارد. ولكن هناك ثمناً ينبغي دفعه مقابل ذلك، والثمن هو عدم الشعور بأدنى قدر من الرومانسية في غمار القيام بذلك. فالشعور الذي يسود هو الشعور بغياب الهدف، كأنما هو نفسه لا هدف له ولا غاية، ولا إحساس الآن بالمستقبل - على نحو ما عايش هذا المستقبل على الدوام - أي كشيء ملموس تتطلّع إليه بثقة حتى ولو أنّ ما يحمله لك قد يكون محزناً أو مأساوياً أو غير مرغوب فيه. وهو يظلّ قائماً. ولكنه لم يدر كيف يتصوّره، لم يدر، على سبيل المثال، وبالتحديد لِماذا هو في باريس، برغم أنّ في وسعه أن يسرد بشكل كامل كلّ شيء دفعه إلى هنا، إلى هذه الطاولة، إلى طبقة من «المول مونييه»، إلى هذا الشعور بالتعب الهائل، وتأمُّل الذين قد يحلمون جميعاً بما هم عاكفون على الحلم به، ولكنّهم في حقيقة الأمر يعرفون على وجه الدقة إلى أين يمضون ولماذا هم هنا. وحدّث نفسه بأنّه من الممكن أن تكون الحكمة في رفيقهم بحياتهم المضيئة على نحو دافئ والمُحْكَمة البناء من أراضٍ بعيدة. ربّما كان قد وصل إلى موضع، أو حتى جاوزه بكثير الآن، لم يعد يكترث عنده بما يحدث له، وكان يدرك أنّ نقاط اتصال الحياة الطيّبة هي نقاط صغيرة ومراوغة وأمور يواكبها الحظّ بعديد من الجوانب وأنّك، لذلك، لا تكاد تلحظها، ولكنك قد تطيح بها، ولا تعرف أبداً كيف فعلت ذلك. كلّ ما هنالك أنّ كلّ شيء يمضي في طريق الخاطئ وتتفكك خيوطه، وقد تكون حياتك في سبيلها إلى الضياع، وإلى أن يلقى بك في عرض الشارع، وإلى أن تختفي كلية. وعلى الرغم من بَذْلك لأقصى ما في وسعك، وتعليقك الآمال على أنّ الأمور ستمضي بشكل مختلف، فإنّك لا تملك إلاّ الوقوف مكتوف اليدين التفرّج على ذلك وهو يحدث لك.

خلال اليومين التاليين لم يتّصل بجوزفين هاتفياً، على الرغم من أنّه فكّر في ذلك طوال الوقت. وفكّر في أنّه قد يلتقيها مصادفة خلال ذهابها للعمل، فشقته الصغيرة المبهرجة لم تكن تبعد إلاّ أربع مجموعات من الأبنية عن مكان عملها في شارع ليل، الذي قام في

إطار حياة مختلفة أشدّ الاختلاف بزيارة عمل محترمة تماماً له قبل أقلّ قليلاً من أسبوع.

سار في الشوارع القريبة كثيراً بقدر المستطاع، لابتياع صحيفة أو شراء الطعام من متاجر السوق الصغيرة في شارع السين، أو لمجرّد المرور أمام واجهات المال وبدأ في تلمّس الطريق عبر الحَوَاري الضيّقة ذات الأرضية الحجرية. وقد كره التفكير في أنّه في باريس لا لشيء إلاّ لرؤية جوزفين بليار، أي بسبب امراة، وهي امراة لا يكاد يعرفها معرفةً حقيقية، ولكنّه رغم ذلك يفكّر فيها طوال الوقت، ويبذل جهوداً مستميتة لرؤيتها «مصادفة». وساوره شعور بأنّه موجود هنا لسبب آخر مراوغ وملحّ، وإن كان سبباً أقلّ تحديداً ولا يستطيع أن يعبّر عنه لنفسه، ولكنّه يحسّ بأنّه سيعبّر عنه فقط وفي نهاية المطاف من خلال كونه هنا وتساوره المشاعر التي يحسّها.

ورغم ذلك، فإنّه لم ير جوزفين مرّة واحدة في شارع ليل، أو خلال سيرها في السان جرمان في طريقها إلى العمل، أو لم يرها وهي تمرّ بمقهى فلور أو مطعم ليب. حيث تناول الغداء معها قبل أسبوع واحد، وحيث كان سمك موسى مليئاً بالجريش، ولكنه لم يذكر ذلك.

طوال جانب كبير من الوقت، وفيما كان يسير في شوارع غريبة، كان يفكّر في بربارة، لا بشعور الذنب، ولا حتى بالفقدان، وإنّما بحكم العادة، وبشكل تلقائيّ. وألفى نفسه يتسوّق لها، ملاحظاً بلوزة، أو وشاحاً أو قلادة أثريّة، أو أقراطاً زمردية يمكنه شراؤها وإحضارها إلى الدار، ووجد نفسه يختزن أموراً يفكّر أن يحدثها بها: أنّ فرنسا، على سبيل المثال، تستمد سبعين في المائة من طاقتها من المفاعلات النووية، وهو عنوان استطاع فهمه من الصفحة الأولى من «الاكسبريس» ودار في ذهنه، مثل إلكترون لا قطب له إلاّ بربارة التي كانت، بالمصادفة، من أنصار الطاقة النووية. وقد أدرك أنّها تحتلّ مكان العاقبة النهائية في حياته. والآن فحسب، أو على الأقلّ في الوقت الحالي، يتعرّض ذلك الموقف للتغيُّر. وأمور من قبيل كونه في باريس، وأنه ينتظر فرصته لرؤية جوزفين، ليست مقاصد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتّجه إليها، أوانّها كلّها بدأت وانتهت من نفسه. وذلك هو النحو الذي أرادها أن تكون عليه. ذلك هو التفسير الملتبس الذي لم يصِفْه على وجه الدقة في الأيام القليلة الماضية. لقد أراد الأشياء، كائنة مًا كانت، أن تكون من أجله، ومن أجله وحده.

في اليوم الثالث، وفي الساعة الرابعة عصراً، اتصل هاتفياً بجوزفين بليار. اتّصل بها في بيتها، وليس في مكتبها، معتقداً انّها لن تكون في البيت، وأن بمقدوره أن يترك رسالة موجزة، وربما غامضة، على جهاز تسجيل المكالمات في غيابها، ثم لا يعاود الاتصال بها عدّة أيام أخرى، كأنّما هو أكثر انشغالاً من أن يحمل المسؤولية عن أوقات محدّدة. ولكن عندما رن جرس هاتفها مرّتين ردّت على النداء.

– مرحباً!

قالها أوستن. وقد أذهله الطابع الفجائي لوجود جوزفين الفعلي على الخطّ، وعلى مسافة قصيرة فحسب من حيث يقف، وقد بدت كعهدها بغير شك. وجعله ذلك يشعر على نحو غامض وكأنّه يوشك أن يفقد وعيه، وأفلح في أن يقول بصوت واهن:

– إنني مارتن أوستن.

سمع طفلاً يصرخ في الخلفية قبل تمكّنها من أن تقول أكثر من مرحباً. صرخ الطفل، ومن المؤكّد انّه ليو، من جديد: «لا».

– أين أنت؟

قالتها بصوت محموم. وسمع صوت شيء يسقط مدوياً في الغرفة، التي كانت فيها.

– هل أنت في شيكاغو الآن؟

قال أوستن متمالكاً نفسه ومتحدّثاً بصوت رقيق للغاية:

– لا، إنّني في باريس.

– ما الذي تفعله هنا؟

قالتها جوزفين، وقد غمرتها الدهشة، ثم أضافت:

– هل أنت في رحلة عمل من جديد؟

بشكلٍ ما كان هذا السؤال داعياً للقلق. قال بصوت خافت للغاية:

– لا، لست في رحلة عمل، إنني هنا فحسب، ولدي شقّة.

قالت بدهشة أعظم:

– لديك شقة! من أجل ماذا؟ لماذا؟ هل زوجتك معك؟

قال أوستن:

– لا، إنّني هنا وحدي، وأعتزم الإقامة بعض الوقت.

قالت جوزفين:

– أوه، للا – للا! هل تشاجرت مشاجرة كبرى في البيت. تلك هي المسألة؟

كذب أوستن عليها قائلاً:

– لا، لم نتشاجر مشاجرة كبرى في البيت، وإنّما قرّرت قضاء بعض الوقت بعيداً. ذلك ليس بالأمر الخارج عن المألوف. أليس كذلك؟

صرخ ليو مجدّداً بوحشية:

– ماما!

حادثته جوزفين بالفرنسية بمزيد من الصبر، قائلة:

– أرجوك، يا حبيبي، أن تلزم الهدوء، آتيةً للاستماع لك في غضون لحظة!

ولم تبد اللحظة بالوقت الطويل للغاية، ولكن أوستن لم يرغب في البقاء على الهاتف طويلاً، وبدت جوزفين أكثر اتساماً بالطابع الفرنسي من أيّ وقت يتذكّرها فيه، فقد كانت في ذهنه أمريكية على وجه التقريب، ولكن بلكنة فرنسية فحسب. قالت وقد بهرت أنفاسها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قليلاً:

– لا بأس، إذن، فأنت هنا الآن، في باريس،

– أريد أن أراك.

قالها أوستن، وكانت تلك هي اللحظة التي انتظرها، ربّما أكثر من اللحظة التي سيراها فيها في نهاية المطاف – تلك اللحظة التي سيعلن فيها وجوده. لا يَعُوقه عائق، موجود، وتوّاق. كانت لذلك أهمية كبيرة، وقد نزع بالفعل خاتم زواجه من اصبعه عندئذ، ووضعه على المائدة إلى جوار الهاتف.

قالت جوزفين:

– نعم... ماذا...

لزمت الصمت، ثم استأنفت الحديث، وقد بدا عليها نفاد الصبر:

– ما الذي تريد القيام به معي؟ ومتى تودّ ذلك؟ ماذا؟

– أيّ شيء، وفي أيّ وقت.

قالها أوستن. وفي تلك اللحظة غمرته أفضل المشاعر التي أحسّها طوال أيام. أضافت:

– في غضون عشرين دقيقة! رويدك. لا!

قالتها، وضحكت، ولكن بطريقة توحي بالاهتمام، حسبما كان يمكنه أن يظنّ. أضافت:

– لا. لا. لا. يتعيّن عليّ الذهاب إلى المحامي خلال ساعة، وعليّ الآن العثور على جارتي لتبقى مع ليو. ذلك مستحيل الآن، إنّني أقوم بإجراءات الطلاق، وأنت، بالفعل، على علم بهذا، وعلى أيّ حال فهو أمر يبعث على الضّيق للغاية.

قال أوستن مندفعاً:

– سوف أبقى مع ليو.

– ستبقى معه!

قالتها جوزفين، وضحكت مرّة أخرى، وأضافت:

– ليس لديك أطفال. أليس كذلك؟ لقد قلت هذا.

قال أوستن:

– إنّني لن أتبنّاه، وإنّما سأبقى معه لمدّة ساعة، ثم يمكنك إحضار جارتك، وأصحبك لتناول طعام العشاء. ما رأيك في ذلك؟

ساوره شعور الثقة بالنفس، وأن هذا كلّه سيتحقّق على نحو يتّسم بالكمال.

قالت جوزفين:

– إنّه لا يحبك، وإنّما هو يحبّ اباه وحده أشدّ ما يكون الحب، بل انه لا يحبّني.

قال أوستن:

– سأعلّمه الإنجليزية، سأعلّمه أن يقول «فريق أشبال شيكاغو». كان بمقدوره الشعور بحماسته تتراجع على الفور، فأضاف:

– سنصبح صديقين عظيمين.

قالت جوزفين:

– ما هو فريق أشبال شيكاغو؟

– إنه فريق بيسبول.

قالها أوستن، وأحسّ، للحظة، كآبةً مفاجئة، لا لأنه تمنى لو أنّه كان في داره، أو أن برباره تكون هنا، أو أنّه تمنّى حقاً أن يكون أيّ شيء مختلفاً عمّا هو عليه: فكلّ شيء كان على ما يأمل أن يكون، وإنّما تمنّى لو أنّه لم يأتِ على ذكر الأشبال، وحدّث نفسه بأنّ ذلك إفراط في الثقة بالنفس، وانه كان من الخطأ الحديث عنه. إنها غلطة.

قالت جوزفين، وقد اكتسى صوتها بالطابع العملي:

– هكذا. طيّب. ستجيء إلى هنا إذن؟ وأمضي أنا إلى المحامي لتوقيع الأوراق، وربما تناولنا طعام العشاء معاً. نعم؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال أوستن، وقد اختفى كل أثر للكآبة:

– بالتأكيد. سأحضر على الفور، سأبدأ الانطلاق في غضون خمس دقائق.

على الجدار المكسو بالجلد القاتم المزابر، وتحت مصباح معدني مركز الضوء، ثُبِّت خصيصاً لهذا الغرض، كانت هناك لوحة زيتية كبيرة، تمثّل رجلين عاريين ومتشابكين في قبلة وعناق متقد. لم يَبْدُ أي من وجهي الرجلين للعيان، وكان جسماهما، المحتشد بالعضلات، من النوع الذي يتميّز به رافعو الأثقال، وقد احتجب عضواهما من خلال وضعهما المتشابك. وكانا يجلسان على صخرة رسمت بطريقة فجة وخشنة للغاية. وحدّث أوستن نفسه بأنّ اللوحة تشبه تمثال لاوكون، وكلّ الفرق أنّ اللوحة يجتاحها الفساد. وكان قد تساءل: هل أحد الرجلين الظاهرين فيها هو مالك الشقة، أو ربما كان الرسام أو عشيقه هو مالكها؟ وتساءل: هل أي منهما على قيد الحياة في أصيل هذا اليوم. وقد كره اللوحة، وقرّر أن يرفعها من على الحائط قبل أن تحضر جوزفين إلى هنا. وكان ذلك هو ما اعتزم القيام به، أي إحضارها إلى هنا، الليلة إذا كان ذلك ممكناً، وأنّ يبقيها معه حتى الصباح، عندما يكون بمقدورهما السير على الأقدام والجلوس تحت أشعة الشمس الفاترة في مقهى «دو ماجو» واحتساء القهوة، مثل سارتر.

– مارتن؟

قالتها جوزفين وكان يوشك على أن يضع سماعة الهاتف في موضعها، ويمضي لإزالة لوحة لاوكون المتملّقة لمشاعر شخوصها، ونسي تقريباً أنّه يحادث جوزفين.

– ماذا؟ إنّني هنا، يا حبيبتي!

رغم ذلك فقد يكون تَرْك اللوحة معلّقة على الحائط شيئاً طريفاً، وهي يمكن أن تكون أداة لإذابة الجليد، ولمنحهما شيئاً يتحدّثان عنه على نحو لاهٍ، مثل المرايا الموضوعة على السقف، قبل أن تغدو الأمور أكثر جدّية.

قالت جوزفين، على نحو غريب:

– مارتن، ما الذي تفعله هنا؟! هل أنت على ما يرام؟

قال أوستن:

– لقد حضرت لرؤيتك، يا عزيزتي! ما سرّ حضوري في اعتقادك؟ لقد قلت إنّني سأراك قريباً، وقد عنيت ذلك، واحسَب أنّني رجل يفي بوعده.

– ومع ذلك فأنت سخيف للغاية.

قالتها جوزفين، وضحكت، وإن لم يكن بسرور بالغ كسرورها المعهود. قالت:

– ولكن ما الذي يمكنني القيام به.

قال أوستن:

– ليس بمقدورك القيام بأيّ شيء. ما عليك إلاّ مقابلتي الليلة، وبعد ذلك لست مضطرة إلى رؤيتي مرّة أخرى.

قالت جوزفين:

– نعم، ليكن. ذلك اتفاق عادل. والآن، عليك بالحضور إلى هنا. تشاو!

– تشاو!

قالها أوستن على نحو غريب، دون أن يكون متيقناً حقاً مما تعنيه كلمة «تشاو».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- ٧ -

كانت بناية الشقق السكنية، التي تقيم بها جوزفين، بناية مألوفة، كغيرها، في شارع يضمّ بنايات مماثلة أقدم عهداً، ذات واجهات بيضاء، حديثة الطراز، تطلّ على حدائق اللوكسمبرج، وفي البهو الصغير، الغارق في الظلال كان هناك مصعد أنيق، عتيق الطراز، له أبواب من الحديد المتصالب، يؤدّي مهمّته. ولكن لما كانت جوزفين تقيم في الطابق الثالث، فقد ارتقى أوستن الدرج درجتين درجتين، وكانت البيضة الصغيرة المطلية بالميناء واللون الأخضر تحتك بفخذه مع كلّ خطوة ارتقاء مبالغ فيها.

عندما طرق الباب، فتحته جوزفين على مصراعيه وألقت ذراعيها حول عنقه. لقد احتضنته، ثم أمسكت وجنتيه بيديها، وقبّلته في فمه بقوّة. تجمّد ليو الصغير، الذي كان لتوّه يجري من غرفة إلى أخرى، ملوّحاً بعصاً خشبية ليضرب بها على طبلة في موضعه وسط الأرضية، ومضى يحدّق فيما أمامه، وقد صدمه مرأى أمّه وهي تقبّل رجلاً لا يذكر أنّه رآه من قبل.

– الآن يتعيّن عليّ أن أسرع.

قالتها جوزفين، تاركة وجهه، وعائدة على وجه السرعة إلى النافذة المفتوحة، المطلّة على الشارع الجانبي، المجاور للحديقة. كانت تضع ظلال جفونها مستخدمة مرآة مدمجة صغيرة والضوء المنهل من الخارج.

كانت ترتدي بلوزة بيضاء، بسيطة، وسروالاً غريباً، فضفاضاً،

عليه صور لحيوانات السيرك، كيفما اتفق، وبألوان باهرة، وكان سروالاً غريباً، لا يتّفق والمناسبة التي تستعدّ للمضي إليها، فيما راح أوستن يحدِّث نفسه بذلك، وكان الوسط محكماً، بحيث أن بطنها الصغيرة بدت في صورة انتفاخ صغير ملحوظ تحت خط الخصر، فبدت بدينة قليلاً، وغير موفّقة إلى حدٍّ ما في ارتداء ثيابها. إلتفتت، وابتسمت له، وهي تجمِّل وجهها، وقالت:

- كيف حالك؟

- إنّني في أحسن حال.

قالها أوستن، وابتسم للصغير ليو، الذي لم يكف عن التحديق فيه، وهو ممسك بعصا الطبلة، كأنّه هندي أحمر صغير مما يصور على حوانيب بيع السيجار. وكان الطفل يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً رياضياً أبيض، طُبع على مقدّمته: «فخامة الوقت الرائع الأميركية» فوق سيارة حمراء هائلة من طراز كاديلاك، ذات سقف من النوع الذي يطوى، بدت وكأنّها تنطلق مسرعة خارجةً من صدره.

نطق ليو شيئاً بالفرنسية، وبسرعة بالغة، ثم نظر إلى أمّه، وعاود النظر إلى أوستن، الذي لم يوغل المسير في الغرفة، منذ أن احتضنته جوزفين وقبّلته.

- لا، لا، يا ليو!

قالتها جوزفين، وضحكت بابتهاج غريب، وقالت شيئاً بالفرنسية في معرض الرد على ليو، وأضافت:

- إنّه يسأل: هل أنت زوجي الجديد، فهو يعتقد أنّني الآن بحاجة إلى زوج، والأمور عنده مختلطة تماماً.

واصلت تجميل عيونها باستخدام الظلال، وبدت جميلة في الضوء المنهل من النافذة، وأراد أوستن أن يمضي الآن ويمنحها قبلة أكثر امتلاء بالمعاني. ولكن الطفل واصل التحديق فيه ممسكاً بعصا طبلته، باعثاً في نفس أوستن الشعور بالارتباك والتردّد، ولم يكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك هو ما ظنّ أنّ مشاعره ستكون عليه، فقد ظنّ أنّه سيشعر بالحرية وبالارتياح والتام وبأنّه، في كلّ شيء، يحلّق في القمّة.

دسّ يده في جيبه، وأطبق راحته على البيضة الخشبية، وانحنى أمام الصبي الصغير، مظهراً قبضتين مطبقتين.

قال له بالفرنسية:

– لديّ هدية لك.

وكان قد تدرّب على هذه الكلمات، وتساءل عن مدى قربه من النطق الصحيح.

وقال بالانجليزية، ليرضي نفسه:

– لديّ هدية جميلة لك.

أضاف بالفرنسية:

– قم بالاختيار الصحيح، يا ليو!

حاول أوستن أن يبتسم، وهزّ اليد الصحيحة، اليد اليمنى، محاولاً جذب انتباه الصغير، وقال مجدّداً، وهو يبتسم ابتسامة يشوبها شيء من التجهّم:

– قم بالاختيار الصحيح، يا ليو!

نظر إلى جوزفين متوقّعاً التشجيع منها، ولكنها كانت ماتزال تحكم على زينتها في المرآة الصغيرة، ورغم ذلك فقد قالت شيئاً بحدّة بالغة لليو، الذي قطّب جبينه الصغير الأسمر، إزاء القبضتين المدفوعتين باتجاهه، وببطء أشار بطرف عصا الطبلة إلى قبضة أوستن اليمنى، التي كان يهزّها. وبتمهّل شديد – كأنّما هو يفتح خزانة مليئة بالذهب – فتح أوستن أصابعه ليكشف عن البيضة الصغيرة الخضراء ذات شرائح الميناء الذهبية وندف الثلج الحمراء، كانت بعض ذرّات اللون الأخضر قد تقشّرت عن البيضة والتصقت براحته، فأدهشه الأمر، وقال بالفرنسية وبلهجة درامية:

– إليك! هذه بيضة جميلة.

حدّق الصغير ليو بشدّة في البيضة الدبقة المستقرّة في راحة أوستن اللدنة، وتطلع إلى محياه بنظرة فاحصة سبق تجريبها، وشفتاه الصغيرتان الرفيعتان تتقوّسان، كأنّما هناك ما يثير قلقه. وبمزيد من التهيّب مدّ عصا طبلته الخشبية، ومسّ البيضة، ثم دفعها بالطرف، الذي يراد به الضرب على الطبلة، ولاحظ أوستن أن في أصابع ليو الصغيرة ثؤلولين أو ثلاثة على شيء من الضخامة والخشونة، وانفتحت في أعماق أوستن تعاسة باردة من طفولته، جعلت ليو يبدو للحظة ضعيفاً ومتعاطفاً. ولكن الطفل قام بسرعة مذهلة برفع عصا الطبلة، ولطم بها البيضة، التي كانت ماتزال في راحة مذهلة برفع عصا الطبلة، ولطم بها البيضة، التي كانت ماتزال في راحة أوستن المدفوعة نحوه، لطمة وحشية، آملاً، فيما يبدو، أن يحطّمها، وينثر محتوياتها، ويلطم أصابع أوستن لطمة مؤلمة بكلّ المعايير.

لكنّ البيضة لم تنكسر، على الرغم من أنّ الضربة قد أطاحت بالميناء الخضراء اللامعة، وأحسّ أوستن الضربة في صورة صدمة، واكتسى محيا الصغير ليو الشاحب بنظرة قوامها الغضب الهائل المكبوح الجماح، ووجّه، في التوّ، إليها، ضربتين مفعمتين بروح الثأر، لطمت الثانية منهما أبهام أوستن لطمة لاذعة، وصلت بالألم إلى حد الخدر، ثم استدار أو هرب من الغرفة، عبر القاعة، وبلف من خلال باب صَفَقَهُ وراءه.

تطلّع أوستن إلى جوزفين، التي كانت تنهي لتوّها تجميل ملامحها، عند النافذة.

– لقد قلت لك من قبل!

قالتها، وهزّت رأسها.

قال أوستن، وهو يعتصر إبهامه، حتى لا يأتي على ذكره:

– هذا الأمر لم ينجح بصورة رائعة.

– ليس هذا مهماً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالتها، وهي تمضي مباشرة إلى الأريكة، واضعة علبة تجميلها الصغيرة في حقيبتها، وأضافت:

– إنّه غاضب طوال الوقت، وهو في بض الأحيان يضربني. هوِّن عليك! جميل منك أن تحضر له شيئاً.

ورغم ذلك، فإنّ ما شعر به أوستن هو أنّه يرغب في تقبيل جوزفين – الآن وقد أصبحا بمفردهما – تقبيلها بطريقة تقول إنّه هنا، وإن ذلك لم يكن محض مصادفة، وإنها كانت في خاطره هذا الوقت بكامله، وإنه أراد أن يكون في خاطرها، وإنّ هذا الأمر بأسره، الذي بدأ في الأسبوع الماضي في إطار من الحذر وكبح الجماح الممزوج بحسن النية، يرتفع إلى مستوى جديد الآن، مستوى ينبغي أن يؤخذ بمزيد من الجديّة. الآن بمقدورها أن تحبه، بل بمقدوره هو أن يحبّها، والكثير غدا ممكناً، ولم يكن قبل أيّام يدخل في نطاق الأحلام.

تحرّك إلى حيث كانت، وهو يعيد دسّ البيضة في جيبه، وإبهامه الجريح ينبض ألماً. كانت منحنية على الأريكة، في سروالها السخيف، الذي يحمل صور الحيوانات. أمسك بخشونة بالغة ردفيها – مغطياً وجهي زرافة صفراء ووحيد قرن رمادي بكفيه، واجتذبها، وحاول أن يديرها نحوه، ليمنحا القبلة التي أراد أن يمنحها اياها، القبلة المهيمنة، التي تشير إلى وصوله البارز إلى الساحة. ولكنها قفزت كأنما أفزعها، وصاحت، فيما كان يدير وجهها ناحيته:

– توقّف! ما الأمر!

كانت تمسك في يدها بإصبع أحمر الشفاه، وقد بدا عليها الضيق، لكونها على هذا القرب منه، على الرغم من أنّ رائحة عطرة، عطرة للغاية وعلى نحو مدهش، قد انبعثت منها، وحدّث نفسه بأنّها تشبه عبق الزهرة.

قال أوستن في مواجهة محيا جوزفين، الذي علاه الضيق مباشرة:

– أعتقد أنّ هناك شيئاً مهماً بيننا، مهماً بحيث يعيدني عبر المحيط، ويدفعني إلى هجر زوجتي، ومواجهة احتمال أن أكون وحيداً هنا.

– ماذا؟

قالتها، وتوتّر فمها، ودون أن تدفعه على وجه الدقة، بذلت جهداً لتبتعد عنه بوصات قليلة. وكان مايزال ممسكاً بردفيها المحتشدين بوجوه الحيوانات، وقد بدت طبقة من ظلال الجفون، حيث كانت تعيد تجميل عينيها.

قال، وقد نظر إليها بجدية:

– لا ينبغي أن تشعري بأنّك تحت أيّ نوع من الضغط. كلّ ما هنالك أنّني أردت رؤيتك. هذا كلّ ما هنالك، ربما أقضي وقتاً منفرداً بك. من يدري إلى أين يمضي الأمر؟

جاهدت للتراجع إلى الوراء، وهي تقول:

– أحسب أنّك متعب للغاية، ربما استطعتَ أن تنال قسطاً من النوم خلال غيابي.

قال أوستن:

– لست متعباً، إنني في خير حال، وسجلي الطبي لا تَشُوبه شائبة، وما من شيء يزعجني.

– ذلك أمر حسن.

قالتها، وابتسمت، وابتعدت عنه بحزم، فيما كان يتحرّك ليمنحها القبلة المبهمة، وقبّلته بسرعة أوّلاً، القبلة نفسها القاسية، المجرّدة من العاطفة، التي حيّته بها قبل خمس دقائق، والتي تركته شاعراً بعدم الرضا.

قال أوستن:

– أريد أن أقبّلك بالطريقة الصحيحة، لا بتلك الطريقة.

إجتذبها بحزم نحوه، ممسكاً بخصرها اللدن، ودافعاً بفمه نحو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فمها، وقبّلها بأقصى ما يستطيع من رقّة، وقد تصلّب ظهرها، واحتدمت مقاومتها، ولم يتشكلّ فمها لتلقّي قبلة، وإنّما تأهّب للحديث عندما انتهت القبلة. أبقى أوستن القبلة ممتدة للحظة طويلة، وقد أغمض عينيه، ونفسه يخرج من أنفه، محاولاً أن يستشعر أمنيته بأن تشعل رقته رقّةً تقابلها. ولكن إذا كانت هناك أي رقّة فقد كانت من نوع غير مقصود، أقرب إلى اللين والرفق. وعندما ضغط على شفتيها لمدّة ست ثوانٍ أو ثمانٍ، إلى أن تنفّس نَفَسَها، وخفّفت من مقاومتها، اعتدل بقامته، ونظر إليها - امرأة أحسّ أنه قد يهواها - وأخذ ذقنها بين أبهامه وسبابته، وقال:

- ذلك هو حقاً كلّ ما أردته. ذلك لم يكن بالأمر البالغ السوء. هل كان كذلك؟

هزّت رأسها، بطريقة تفتقر إلى الحماسة. وبرقّة بالغة، تكاد تصل إلى حد التواطؤ قالت:

- لا.

كانت عيناها منكستين، وإن لم يكن ذلك بطريقة يشعر بأنه واثق منها، بل كأنها في انتظار شيء ما. وأحسّ أنّ عليه أن يدعها الآن. ذلك هو ما ينبغي القيام به. لقد أرغمها على أن تقبّله، وقد رقّت ولانت. والآن يمكنها أن تكون حرّة في القيام بأيّ شيء تريد القيام به.

إلتفتت جوزفين مسرعة نحو حقيبتها، الموضوعة على الأريكة، ومضى أوستن نحو النافذة، وتأمّل الأشجار الممتدة في حدائق اللوكسمبرج. كان النسيم بارداً عليلاً، وبدا النور شبيهاً بالحليب، وافراً، في أواخر الأصيل. تناهت إلى سمعه موسيقى، موسيقى جيتار من مكانٍ مّا، وصوت غناء خافت. وشاهد أحد ممارسي رياضة العَدْو وهو يمضي عبر بوابة الحديقة، ويخرج إلى الشارع القابع في الأسفل، وراح يتساءل عمّا يمكن أن يدور بخلد أيّ شخص يراه واقفاً في هذه النافذة، شخص ينظر من الحديقة الرائعة ويرى رجلاً أمريكياً في نافذة امرأة فرنسية. ترى هل

سيكون من الواضح أنّه أمريكي؟ أم ترى من المحتمل أن يبدو فرنسياً؟ هل سيبدو ثرياً؟ هل ستظهر نظرة الرضا في عينيه جلية للعيان؟ حدّث نفسه بأنّه من المؤكّد تقريباً أنها ستبدو جلية للعيان.

قالت جوزفين وراءه:

– يتعين عليّ الذهاب للمحامي الآن.

قال أوستن:

– جميل. إذهبي! عودي مسرعة! سأُعنى بالصغير «جيني كروبا» ثم نقضي أمسية جميلة.

كانت لدى جوزفين رزمة ضخمة من الوثائق، راحت تدفعها بقوّة في حقيبة أوراق من البلاستيك، وقالت بصوت يعكس الشرود والتشتُّت:

– ربما.

مضى أوستن يتصوّر نفسه وهو يحادث هانك بولاد في العمل في مجال تكييف الهواء. وكانا جالسين في مقهى بشارع جانبي مُشْمِس. وكانت أخبار هانك، المتعلّقة بالشراكة بينهما، أخباراً طيبة، مفعمة بالوعود.

سارعت جوزفين باتجاه القاعة، وحذاؤها المسطّح يمس ألواح الأرضية الخشبية مُحْدثاً صوتاً، وفتحت باب غرفة ليو، وقالت له شيئاً سريعاً ورقيقاً للغاية، ثم أغلقت الباب، ودخلت الحمام، واستخدمت المرحاض، دون أن تكترث بإحكام إغلاق الباب عليها. ولم يكن في وسع أوستن أن يرى ما عبر القاعة من حيث وقف في غرفة الجلوس، ولكنه كان بمقدوره سماعها وهي تتبول، ودفق المياه المحدود يرتطم بالمزيد من المياه. كان صوتاً يسمعه آلاف المرّات – وكانت بربارة تغلق الباب دائماً. أما هو فلم يكن يغلقه أيضاً – ولكنه كان صوتاً يحبّه بشكل خاص، وعادةً ما كان يحاول تجنّب سماعه، ولم يكن ذلك راجعاً إلى أنّه ممن تنقلب معداتهم بسهولة، ولكن الصوت كان يبدو له خاملاً للغاية، معبراً بدقّة عن حقيقة، وكان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سماعه يهدّد بإزاحة طبقة من الشعور الطيّب، وقد أسف الآن لاضطراره إلى سماعه، وأسِفَ لأنّ جوزفين لم تكترث بأن تغلق الباب.

غير أنّها، في غضون لحظة، خرجت، ومضت عبر الدهليز، والتقطت حقيبتها، وكان الماء ينساب في الأنابيب، محدثاً صوتاً أقرب إلى التنهّد. ونظرت إلى أوستن نظرة غريبة، هاربة، عبر الغرفة، كأنما دهشت لوجوده هناك، ولم تكن على يقين من سبب وجوده. وساوره الشعور بأنّ هذه النظرة هي نفسها التي ترمق بها موظفاً غير بارز قال شيئاً لا سبيل إلى تفسيره.

قالت:

– هكذا، أنا ذاهبة الآن.

– سأكون هنا، سارعي بالعودة! اتفقنا؟

قالها أوستن، وهو ينظر إليها، وقد داهمه فجأة شعور بالعجز عن القيام بأيّ شيء.

قالت:

– نعم، بالتأكيد، اتفقنا، سأعجّل بالعودة، أراك بخير.

– عظيم.

قالها أوستن. وخرجت جوزفين من الباب، وسارعت بنزول الدرجات التي ردّدت صدى خطواتها نحو الشارع.

مضى أوستن يتجوّل في أرجاء الشقّة لبعض الوقت، ملقياً نظرة على الأشياء – الأشياء التي أحبّتها جوزفين بليار، أو اعتزّت بها، أو احتفظت بها عندما حمل زوجها أشياءه. كان هناك جدار بكامله من الكتب عبر جانب واحد من غرفة النوم الصغيرة التي اقتطعتها من مساحة الشقّة لتحقيق خصوصيتها، مستخدمة ورق أرز صينياً مقلّداً كحاجز فاصل. كانت الكتب من الامتدادات الفرنسية الرشيقة ذات الغلاف الورقي، تدور غالباً حول موضوعات اجتماعية، على الرغم من أن كتباً أخرى بدت باللغة الألمانية. كان فراشها المتواضع

مغطى بلحاف أبيض، نظيف، منفوش، وقد وضعت عليه وسائد بيضاء لينة، ولا وجود لراس للفراش، وإنما الإطار فحسب، وإن كان بالغ النظافة، ووضعت على الطاولة المجاورة للفراش نسخة من رواية زوجها الذي سيصبح عما قريب زوجها السابق بكل ما فيها من فضائح، وقد طويت عدّة صفحات بخشونة. قام بفرد إحدى الصفحات، وقرأ جملة تقوم فيها شخصية تدعى «صولانج» بممارسة فعل غير ملهم من أفعال الجنس الفموى مع شخص يدعى البير. وتعرف على الكلمتين المشحونتين الدالتين على الجنس الفموى وممارسته الكئيبة. كان البير يتحدّث عن إصلاح سيارته طوال هذه الممارسة. وكان العنوان غير الملهم للكتاب هو «غرام سرّي» ولم يكن هناك وجود لصورة برنار المتجهّمة والموحية بالتركيز.

راح يتساءل عما عرفه برنار، ولم تكن له معرفة به. وقد افترض أن هناك الكثير، حتى إذا كان الكتاب نصف صادق. ولكن المجهول كان مثيراً للاهتمام، ويتعيّن عليك أن تواجهه بشكل أو بآخر، على الرغم من أنّه قد يكون مجهولك أكثر منه مجهول أي شخص آخر. وعلى الرغم من ذلك فإنّ فكرة ممارسة الجنس الفموى مع جوزفين – وهي مسألة لم يفكّر فيها مجرّد تفكير حتى هذه اللحظة – أشعلت اللهيب فيه، وشرع في التفكير في أنّ هناك شيئاً جنسياً على نحو مميّز في التجوال وفحص الأشياء الخاصة وغرفة نومها، غرفة وفراش كان بمقدوره أن يتخيل شغلهما في المستقبل القريب. وقبل أن يبتعد وضع البيضة الخضراء المطلية بالميناء على المنضدة المجاورة لفراشها، غير بعيد عن نسخة كتاب زوجها الفضائحي، وحدّث نفسه بأنّ ذلك من شأنه أن يخلق مفارقة، وربّما تذكرة بأنّها لديها خيارات في الدنيا.

أطلّ من نافذة غرفة النوم على الحديقة. كان المشهد ذاته الذي تطلّ عليه غرفة المعيشة – الحديقة الرسمية المترفة، ذات الأشجار الكبيرة المورقة، والمرجات الخضراء ذات العشب المجزوز، والتي تحفل بالمناطق المشذبة بشكل فنّي، وشجيرات الطقوس، وتقاطعات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الممرّات الشاحبة المكسوة بالحصباء، فيما المدرسة العليا لعلوم المعادن تلوح من بعيد، على امتداد الجانب الأقصى، وقصر اللوكسمبرج على امتداد الجانب الأيسر. كان بعض الهيبيين يجلسون في دائرة صغيرة محكمة على إحدى المرجات، وقد تقاطعت سيقانهم، وهم يتقاسمون قطعة لحم كبيرة أعدّت لهم بطريق الشيّ. ولم يبد للعيان أحد غيرهم، على الرغم من أنّ الضوء كان لطيفاً، حالماً، مغرياً بالجلوس فيه، والطيور تحلّق عبره. دوّت دقّات ساعة في مكانٍ مّا في القريب، وكانت موسيقى الجيتار قد توقّفت.

حدّث أوستن نفسه بأنّه سيكون أمراً مبهجاً القيام بالتنزّه هناك مع جوزفين، وشمّ النسيم العليل المنساب بين أشجار الكستناء والتحديق بعيداً. الحياة هنا مختلفة للغاية. وهذه الشقّة شديدة الاختلاف عن داره في أوك جروف. وساوره إحساس الاختلاف هنا. وبدا، في حقيقة الأمر أن الحياة قد تحسنّت بصورة ملحوظة في وقت قصير، وحدّث نفسه بأنّ كل ما اقتضاه الأمر هو الشجاعة في السيطرة على الأشياء، ومواجهة العواقب، والتعايش معها.

افترض أن الصغير ليو نائم في القاعة، وأن في وسعه أن يمضي وحيداً إلى هناك. ولكنّه، عندما جلس متصفّحاً النسخة الفرنسية من مجلة «فوج» لحوالي ثلث ساعة، سمع صوت باب القاعة وهو يفتح. وبعد ثوان ظهر الطفل عند الركن، وقد بدا عليه الارتباك وأثرُ تناولِ عقار طبّي، ومايزال مرتدياً القميص الرياضي، الذي يحمل كلمات «فخامة الوقت الرائع الأميركية» بسيارته الكاديلاك الحمراء بارزة عند المقدّمة. ومايزال منتعلاً حذاءه الصغير.

فرك ليو عينيه، وبدا جديراً بالاشفاق. ولاشكّ أنّ جوزفين قد أعطته شيئاً لتهدئته - وهو الأمر الذي ما كان ليحدث في الولايات المتحدة. وحدّث نفسه بأنّ الكبار في فرنسا يعاملون الأطفال على نحو مختلف، معاملةً أكثر ذكاء.

- مساء الخير،

قالها أوستن بالفرنسية، بصوت ساخر قليلاً، وابتسم، واضعاً مجلة «فوج» بجواره.

نظر إليه ليو بضيق، وقد أثار شكّه أن يسمع الفرنسية من هذا الشخص، الذي لم يكن فرنسياً بأيّ شكل من الأشكال. مسح بناظريه الغرفة سريعاً ليرصد وجود أمّه. فكّر أوستن في خطة لإعادة تقديم البيضة المطلية بالميناء، التي تزعزع وضعها، ولكنه حسم رأيه بعدم القيام بذلك. ألقى نظرة على الساعة الموضوعة فوق خزانة الكتب: سيتعيّن، بشكل من الأشكال، قضاء خمس وأربعين دقيقة قبل أن تعود جوزفين. ولكن كيف؟ كيف سيكون قضاء الوقت بطريقة تجعل ليو سعيداً، وقد تؤثر في نفس أمّه؟ إنّ فكرة فريق أشبال شيكاغو لن تنجح، فليو أصغر من أن يستوعبها. وهو لم يكن على معرفة بأيّ لعبة أو حيلة، وهو لا يعرف شيئاً عن الأطفال، وهو في حقيقة الأمر آسف لأنّ الطفل مستيقظ، آسف لأنّه هنا على الاطلاق.

ولكنه فكّر في الحديقة – حدائق اللوكسمبرج – المتاحة خارج النافذة مباشرة. ومن شأن نزهة لطيفة في الحديقة أن تضعهما على الطريق الصحيح، كما راح يحدّث نفسه. لم يكن قادراً على الحديث مع الطفل، ولكن باستطاعته مراقبته ويمتع هو نفسه في آن.

– هل ترغب في الذهاب إلى الحديقة؟

قالها أوستن بالفرنسية، وابتسم ابتسامة واسعة مخلصة. وأضاف:

– الآن؟ ربما؟ الحديقة؟ نعم؟

أشار إلى النافذة المفتوحة ونسيم المساء البارد الساكن حيث القُبرات تحلّق عالياً وترفّ بأجنحتها.

تجهّم ليو في مواجهته، ثم في مواجهة النافذة، ومازال على شعوره بالدوار. ثبّت قبضة جازمة أمام بنطلونه القصير – وهي إشارة أدرك أوستن مغزاها – ولم يردّ عليها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قال متحمّساً، وبصوت عال:

– ما قولك؟ دعنا نذهب إلى الحديقة!

أوشك أن يثب واقفاً، ففي مقدور ليو أن يفهم الكلمة جيّداً، سواء أقالها بالفرنسية أم بالانجليزية. الحديقة. الحديقة.

– الحديقة؟

قالها الصغير ليو، وبتوق أكبر أرسل صيحته الصغيرة وكأنه يعتصرها:

– أمي!؟

قالها، وقد أوشك أن يبدو مجنوناً.

– أمك في الحديقة،

قالها أوستن، محدّثاً نفسه بأنه، من داخل الحديقة، سيشاهد يقيناً جوزفين، وهي في طريق عودتها من مكتب المحامي، وانه لن يتّضح انّ الأمر كذبة كاملة، وأنّه إذا ما حدث ذلك فإنّ جوزفين ستعود وتسيطر على الأمور، قبل أن تحدث مشكلة. وحدّث نفسه بأنّه لن يرى هذا الطفل بعد ذلك ثانية أبداً، وأنّ جوزفين قد تعود ولا ترغب في رؤيته أبداً، رغم أن خاطرة أكثر قتاماً قد طرأت على ذهنه: أن جوزفين قد لا تعود أبداً، وقد تقرّر أن تختفي، في مكان ما وهي في طريق عودتها من مكتب المحامي. لقد حدث ذلك، وجرى التخلّي عن أطفال صغار في شيكاغو طوال الوقت، ولم يعرف أحد قط ما الذي حدث لآبائهم أو إلى أين مضوا. إنه لا يعرف أحداً تعرفه جوزفين، لا يعرف أحداً يمكن أن يتصل به. كانت خاطرة كابوسية.

في غضون خمس دقائق، كان قد دفع بليو إلى الحمّام، وأخرجه منه ثانية. وبمزيد من السعادة، اعتنى ليو بنفسه في الحمام، حريصاً على خصوصيته، بينما وقف أوستن خارج الباب، وراح يحدّق في صورة وجه برنار المتضخّم، المنتفخ على جدار غرفة الولد. وأدهشه أن تتركها جوزفين معلّقة. واضطر إلى كبح دافع

يحدوه إلى أن يبلغها بأن تتحدى برنار، وتلطمه في مقتل إن استطاعت، وذلك على الرغم من أنّه، فيما بعد، أحسّ الغثيان من تآمره على رجل لم يعرفه.

فيما هما يغادران الشقّة، أدرك أوستن أنّه ليس لديه مفتاح، لا للباب الخارجي ولا للباب الخاصّ بالشقّة نفسها، وأنه، بمجرّد إغلاق الباب، سيكون عليه وعلى ليو أن يتدبرا أمرهما: رجل أمريكي، يتحدّث القليل من الفرنسية، وحده مع طفل فرنسي في الخامسة من عمره لا يعرفه، في بلاد، في مدينة، في حديقة هو غريب عنها تماماً. ما من أحد سيعتقد أنّ هذه فكرة طيّبة، فجوزفين لم تطلب منه أن يصحب ليو إلى الحديقة – كانت تلك فِعْلَته، وكانت مخاطرة. ولكن كلّ شيء بدا مغامرة، في تلك اللحظة، وكل ما كان في حاجة إليه هو أن يلزم الحذر.

إنطلقا إلى شارع فيرو، وسارا حول المنعطف، ثم خطوات قلائل، وعبر الشارع العريض إلى بوّابة ركنية دلفا منها إلى الحديقة. لم يقل لي شيئاً، ولكنه أصرّ على الإمساك بيد أوستن واقتياده في الطريق إلى الحديقة، كأنما هو – ليو – يصحب أوستن إلى الحديقة، لأنّه لم يعرف ما الذي يفعله به غير ذلك.

ما إن دلفا عبر البوّابة المذهبة القمّة، ومضيا إلى الممرّات الحصبائية الشاحبة التي تمضي في متاهات عبر الشجيرات والأشجار وأحواض الزهور المزروعة، حيث كان النرجس البرّي مبرعماً بالفعل، حتى انطلق ليو راكضاً مباشرة في اتجاه بركة اسمنتية الحَوافّ، كانت البطات وطيور التم تسبح فيها، ومجموعة من الصبية الأكبر سنّاً تقوم بتعويم نماذج مصغّرة للسفن الشراعية. تطلّع أوستن إلى الوراء ليتبيّن أي البنايات هي بناية جوزفين، ومن أيّ النوافذ وقف مطلاً على هذه الحديقة ذاتها. ولكنه لم يستطع تبيّن النافذة، بل لم يكن واثقاً من أن في مقدوره أن يرى، من هذه النافذة، هذا الجزء من الحديقة. والدليل على ذلك شيء واحد محدّد، هو أنه لم تكن هناك بركة، وهنا كثير من الناس يتنزّهون في ضياء المساء اللطيف المترامي – عشاقاً ومتزوّجين معاً، كما يبدو من مظهرهم. إنهم يمضون في نزهة جميلة، قبيل العودة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى الدار لتناول طعام العشاء، وحدّث نفسه بأنّه ربما كان من مخطّط الحديقة أنّ الأجزاء الجديدة تبدو على الدوام مألوفة والعكس صحيح.

مضى أوستن، على مهل، إلى حافة البركة الاسمنتية، وجلس على مقعد، لا يبعد أكثر من أمتار قليلة عن ليو، الذي وقف في طرب، وهو يراقب الصبية الأكبر سناً، وهم يُعْنَون بسفنهم بعصيٍّ رفيعة، طويلة. لم تكن هناك ريح، وليس في الهواء إلاّ أصوات الصبية الرقيقة، التوّاقة، فيما القبرات ماتزال تنطلق مسرعة كالسهام. وطفت نماذج السفن الصغيرة في سكون، في المناطق الضحلة، مع قشور الفول السوداني وقطع الذرة المشوية، وانزلق عدد من البطات وطيور التم بعيداً عن مطال الأيدي، وهي ترمق نماذج السفن، منتظرةً رحيل الصبية.

كان في وسع أوستن سماع كرات التنس، وهي تضرب، غير بعيد عن المكان، ولكنه لم يستطع تبيّنَ موضعها على وجه الدقّة، واحسّ متيقناً أنّ الكرات تضرب في ملعب محاط بحاجز صلصالي وتمنّى لو أنّ في مقدوره مشاهدة الناس وهم يلعبون التنس، بدلاً من مشاهدة صبية عاكفين على تعويم نماذج للسفن. تناهت إليه أصوات انثوية ضاحكة، متحدّثة بالفرنسية، معاودةً للضحك، ثم ضربات لكرة التنس من جديد. امتدّ حائط كثيف مِمّا بدا أنّه نبات الوردية، فيما وراء مرجة معشبة، وحدّث نفسه بأنّ وراء هذا الحائط تمتدّ الملاعب يقيناً.

على الجانب المقابل من البركة، جلس رجل في بدلة سمراء اللون ضاربة إلى الصفرة، ورجل آخر يلتقط له صورة، وتستخدم في ذلك كاميرا غالية الثمن. وواصل الرجل الثاني التحرّك، متوصلاً إلى أوضاع جديدة من خلال إطار المشاهد. وسمع أوستن المصوّر يقول: «رائع. جميل، جداً، جداً، جداً. لا تتحرّك الآن! لا تتحرّك!». وحدّث أوستن نفسه بأنّه لا شك شخصية شهيرة: ممثل، أو كاتب شهير، شخص يقف على قمّة العالم. وبدا الرجل بعيداً عن التأثّر، بل أنه لم يقرّ بأنّ هذه الصورة تلتقط له.

إلتفت ليو، دونما توقّع، ونظر إلى أوستن، وكأنّما هو – ليو – يوشك على قول شيء ما، شيء بالغ الأهمية، ومثير، حول نماذج السفن. كان وجهه متوهّجاً بالشعور بالأهمية. ورغم ذلك فإنّه عندما رأى أوستن متربعاً على المقعد الخشبي، ألقى تقديره لهوية أوستن بسحابة على ملامحه الصغيرة الشاحبة، وبدا فجأة مهتاجاً، وقد غمرته الطهارة وأسدلت عليه ستارة من السرية، والتفت إلى الوراء مسرعاً، مقترباً من حافة الماء، كأنما ينوي الخوض فيه.

حدّث أوستن نفسه بهدوء بأن ليو مجرّد طفل، طفل انفصل والداه بالطلاق، وليس وحشاً، ولا طاغية، ويمكن اكتساب ودّه مع مرور الوقت والاستعانة بالصبر. وفكّر في أبيه، وهو رجل طويل القامة، صبور، طيّب القلب، عمل في متجر للأدوات الرياضية في بيوريا. وقد احتفل مع والدته، (والدة أوستن)، بعيد زواجهما الخمسين قبل عامين، في حفل كبير أقيم في خيمة بحديقة المدينة، مع قدوم تيد، شقيق أوستن من فونيكس، وكل أبناء العمومة الأكبر سناً، والأصدقاء، من الولايات البعيدة، والذين تعود الصلة بهم إلى عقود طويلة. وبعد ذلك بأسبوع تعرض لنوبة قلبية، وهو يشاهد الأخبار في التلفزيون، ومات في مقعده.

وبهدوء أدرك أوستن أنّ أباه قد اعتصم على الدوام بالصبر في تعامله مع أبنائه، فلم ينته زواجه بالطلاق، وخلت حياته من أحداث مغادرة الدار الفجائية في منتصف الليل، ولكنه حاول دائما تفهّم وقائع ما يجري في حياة الجيل التالي. وراح أوستن يتساءل: ترى ماذا كان يمكن أن يكون رأيه في هذا كلّه؟ إمرأة غريبة لها ولد. ودار خاوية في الوطن. هجران. أكاذيب. فوضى. ربما كان من شأنه أن يبذل محاولة لفهم كلّ شيء، وأن يجرّب العثور على الجانب الطيّب في الأمر، على الرغم من أن حكمه يمكن أن يكون في نهاية المطاف قاسياً، وربّما وقف إلى جانب بربارة، التي أعجب بنجاحها في مجال العقارات. وفكّر في تصوّر كلمات أبيه ذاتها، في حكمه الصادر من مقعده الكبير المريح أمام جهاز التلفزيون – البقعة ذاتها التي لفظ فيها آخر أنفاسه. وكلّ ما هنالك أنّه لم يستطع تصوّر ذلك؛

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فهو، لسبب من الأسباب، لم يستطع أن يستحضر، على وجه الدقّة، صوت أبيه وإيقاعات كلماته، ودرجة نغمته. وكان من الغريب ألاّ يتذكّر صوت أبيه، وهو صوت سمعه طوال حياته، ومن المحتمل أنه لم يكن له كلّ هذا التأثير.

مضى يحدّق في الرجل الذي يرتدي البدلة السمراء الضاربة إلى الصفرة على الجانب الآخر من البركة، الرجل الذي تُلتقط صورته. وكان الآن يعتلي الحافة الاسمنتية والبركة الضحلة وراءه، وقد باعد ما بين ساقيه، ووضع يديه على ردفيه، وعلّق سترته السمراء الضاربة إلى الصفرة على موضع إنعقاف مرفقه، وبدا مثيراً للسخرية وغير مقنع، فيما يتعلّق بما يفترض أن يكون مقنعاً بشأنه. وتساءل أوستن: هل سيظهر، في خلفية الصورة، شخصاً مضبباً، بعيداً يحدّق عبر البركة الراكدة. قد يراها في مطبوعة ما، في «اللوموند» أو «الفيجارو»، وهما الصحيفتان اللتان لم يكن بمقدوره أن يقراهما. وستكون هذه الصورة تذكراً يضحك بشأنه في وقت لاحق، حينما يكون أين؟ ومع من؟

ليس من المحتمل أن يكون ذلك مع جوزفين بليار. كان شيءٌ مّا يتعلّق بها قد أزعجه هذا الأصيل، ولم يكن هذا الشيء ترددها في تقبيله، فهذا موقف في وسعه أن يتغلّب عليه بمرور الوقت، وقد كان متفوّقاً في التغلّب على التردّد لدى الآخرين، حيث كان رجلاً مقنعاً، له روح البائع. كان يعرف ذلك، بل كان ذلك يضايقه بين الحين والآخر، حيث شعر بأنّه، إذا ما توافرت الظروف المناسبة، فإنّ في وسعه أن يقنع أيّ شيخص بأيّ شيء كائناً مّا كان. ولم تكن لديه فكرة واضحة عن طبيعة هذه الخاصية، ولكن بربارة تحدّثت عنها بصورة عرضية، وغالباً ما ترتبت على ذلك عاقبة لا تدعو للفخر: انّه لم يؤمن بهذه الخاصية كثيراً، أو، لم يؤمن بها الإيمان الكافي، وقد جعلته على الدوام يشعر بعدم الارتياح حول انّ هذا قد يكون صحيحاً، أو، على الأقل، قد يُظن كذلك، على الأقلّ.

وكان قد اعتقد بأنّه يمكن أن تربطه بجوزفين علاقة من نوع آخر: علاقة جنسية، ولكنها ليست جنسية في جوهرها، وإنّما هي

بالأحرى شيء جديد، يقوم على حقائق الواقع – حقائق شخصيته وحقائق شخصيتها، في حين أنه، مع بربارة، كان يؤدّي نهاية شيء عتيق فحسب، أقلّ واقعية على نحو من الأنحاء، وأقلّ نضجاً. لن يكون في مقدوره أبداً أن يحب جوزفين حبّاً حقيقياً ذلك أمر ينبغي أن يتراجع: إنّه، في قرارة فؤاده، ما أحبّ إلاّ بربارة، أيّاً مّا كان مبرّر ذلك. إنّه، مع هذا، قد أحسّ، للحظة، أنّ جوزفين قد سحرته، ووجدها فاتنة، بل فكّر في إمكانية الحياة معها شهوراً أو سنين. كان أيّ شيء مندرجاً في حدود الإمكان.

وعلى الرغم من ذلك، فإنّ رؤيتها في شقّتها اليوم، وهي تبدو بالمظهر الذي كان يعرف أنّها ستبدو به، وكونها على وجه الدقّة المرأة التي توقع أن تكونها، قد جعلاه يشعر بالتشوّش على نحو افترض أنّه لن يكفّ تماماً عن الشعور به، إذا ما أقلع معها في رحلة تستمر طوال ما بقي من العمر. وقد كان، من الذكاء، بحيث يدرك أنّه، إذا أحسّ التشوّش الآن، أي في البداية ذاتها، فإنه لن يشعر فيما بعد إلاّ بالمزيد منه، وأنّ الحياة ستصبح، إنْ عاجلاً أو آجلاً، نوعاً من الجحيم، سيتحمل عنه كامل المسؤولية.

تنافست هذه القضايا في تفكيره، دون أن تتخذ شكلاً مجدداً على امتداد الأيام الأخيرة. أما الآن، وقد أصبح هنا، فإنّها ستوضح لها، بشكل أو بآخر. وكلّ ما عليه القيام به: ألاّ يسبّب ضرراً، وألاّ يثير فوضى لا داعي لها لأيّ شخص، وسرعان ما ستنجلي الأمور.

كان إبهامه مايزال يؤلمه على نحو غامض. ومضى النسوة يضحكن مجدداً في ملاعب التنس، وراء حاجز نبات الوردية المزهر، وتمكّن بالفعل من رؤية رَبْلَتَيّ امرأة وحذاء تنس في حركة تَقَافُز من مكان إلى مكان، كأنّما في غمار ضرب الكرة بالمضرب، بالمواجهة أولاً، ثم بظاهر اليد، والقدمين الصغيرتين تتراقصان على السطح الأحمر. وصاحت امرأة: «توقفي!» وندّت عنها تنهيدة عالية.

حدّث أوستن نفسه بأنّ النساء الفرنسيات كافة يتحدّثن كالأطفال، بصوت عالي النبرة، وبإيقاع سريع، وبأصوات ملمّة على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نحو لا يبعث البهجة في النفوس، تقول في معظم الأوقات: «لا، لا، لا، لا. لشيء يرغب فيه شخصٌ مّا، رغبة يحتمل أن تكون بريئة، وإلاّ تكون كذلك. كان في وسعه سماع جوزفين تقولها، وهي واقفة في غرفة الجلوس بشقتها الصغيرة في المرّة الأخرى الوحيدة التي زار الشقّة خلالها – قبل أسبوع – متحدّثة على الهاتف مع شخص آخر، وهي تلفّ سلك الهاتف الأبيض حول اصبعها قائلة في سماعة الهاتف: «لا، لا، لا، لا، لا. هذا لا يصدّق. هذا لا يُصدّق!». وكان ذلك أمراً يبعث على الضيق بشدّة، على الرغم من أنّه كان أمراً مسلياً أن يفكّر فيه خلال هذه اللحظة، على مسافة زمنية ومكانية منه.

لم تألف بربارة الفرنسيات مطلقاً، ولم تُخْفِ ذلك. وكان من شأنها أن تقول، بعد أمسيات مع عملائه الفرنسيين وزوجاتهم: «إنهن كالضفادع تماماً»، ثم يتّسم تصرفّها بالاشمئزاز. وربما كان ذلك هو ما أزعجه في جوزفين، أي أنها بدت نموذجاً للفرنسية البرجوازية الصغيرة، من النوع الذي تكرهه بربّاره بوحي اللحظة: متشابكة، مشغولة، ملتصقة تماماً بحياتها الفرنسية، دون أي إحساس بالعالم في أبعاده الأوسع نطاقاً، وربما ظهرت بعيدة عن السماحة، حسبما تكتشف إذا ما عرفتها لفترة طويلة، مثلما اكتشف زوجها. وحدّث أوستن نفسه، وهو ينظر من حوله بحثاً عن ليو، بأنّ مشكلة جوزفين: أن جديتها مع كلّ شيء داخل حياتها أكثر ممّا ينبغي: أمومتها، كتاب زوجها المثير للسخرية، صديقها، سوء حظّها. كانت تنظر إلى كلّ شيء من خلال المجاهر، كما لو كانت تنتظر على الدوام رؤية خطأ تستطيع تكبيره بما يكفي الاّ يكون أمامها من خيار إلا أن تأخذ الحياة بجدية بالغة، وكأنما ذلك هو كلّ حياة الكبار: الجدية والانضباط. ولا مجال للمرح. وحدّث أوستن نفسه بأنّ الحياة ينبغي أن تكون أكثر خفّة على القلب، وذلك هو سبب وجوده هنا، وسبب إطلاق العنان لنفسه، وتمتعه بالحياة تمتعاً يجاوز قليلاً ما ينبغي. ولهذا فقد أعجب بنفسه ولم يفكّر في أنّه يمكن أن يكون المنقذ في حياة جوزفين، فذلك من شأنه أن يكون

كفاحاً يمتدّ بامتداد العمر، والكفاح بامتداد العمر لم يكن أبرز ما يرغب فيه في هذه الدنيا.

عندما نظر حوله من جديد، بحثاً عن ليو، لم يكن الصغير في الموضع الذي كان فيه، لم يكن واقفاً كأنّما في حلم إلى جوار الصَّبْية الأكبر سناً هناك، وكان هو متأمّلاً زوارقهم وسفنهم الصغيرة وهي تنزلق على سطح البركة الراكد. كان الصَّبية هناك، وقد أمسكوا بِعِصيِّهم الطويلة يدفعون بها نماذج السفن، وراحوا يتهامسون فيما بينهم، ويبتسمون. ولكن ليو لم يكن له وجود معهم. غدا الهواء أكثر برودة، وانحسر الضياء عن أسقف المدرسة العليا المزخرفة، وسرعان ما سيحلّ الظلام. وبعد أن التقطت صورة الرجل، مضى في طريقه مع المصوّر. لقد غرق أوستن في التفكير، وغاب ليو الصغير عن ناظريه، ومضى في مكانٍ كان متيقناً أنّه ليس بالبعيد.

ألقى نظرة على ساعته. كانت عقاربها تشير إلى السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين، ويمكن لجوزفين أن تكون الآن في الدار. رفع ناظريه إلى صف البنايات السكنية، على أمل أن يرى نافذتها، محدِّثاً نفسه بأنّه قد يراها هنالك تنظر إليه، ملوحة بيديها له في سعادة، وربما كان ليو إلى جانبها. ولكنه لم يستطع تحديد البناية التي تقيم فيها. كان بمقدوره أن يرى نافذة مفتوحة وقد عمّ الظلام ما بداخلها. لكنه لم يستطع التيقّن من أنها نافذتها، وعلى أيّ حال فإنّ جوزفين لم تَبْدُ فيها.

تطلّع أوستن إلى كلّ ما حوله، على أمل أن يرى تألق قميص ليو الرياضي الأبيض، والكادیلاك الحمراء المندفعة إلى أحد الجوانب. ولكنّه لم ير إلاّ عدداً قليلاً من الأزواج يتنزّهون على امتداد الممرات ذات اللون الطباشيري، واثنين من الصَّبْية الأكبر سناً يحملان نماذج سفنهما إلى شفّتي أبائهما. وكانت أصوات كرات التنس وهي تضرب ماتزال تتناهى إلى سمعة بوك، بوك، بوك، وساوره الشعور بالبرود والهدوء، وهو ما عرف أنّه شعور بالشروع في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخوف، شعور كان يمكن أن يتحوّل سريعاً إلى مشاعر أخرى، ويدوم وقتاً طويلاً، طويلاً.

كان ليو قد اختفى، ولم يكن على يقين من الموضع الذي اختفى فيه. رفع عقيرته بالنداء: «ليو!» بطريقة النطق الأمريكية، ثم بطريقة النطق الفرنسية «لي - يو!» بالطريقة التي تنطق بها أمّه اسمه، وأضاف بالفرنسية «أين أنت؟» تطلّع إليه المارّة متجهمّين، وهم يسمعون لغتين في وقت واحد، ونظر إليه صبية الزوارق الباقون نظرة عجلى، وابتسموا. هتف من جديد منادياً «لي-يو!» وعرف أنّ صوته لم يتردّد عادياً، وأنّه ربّما بدا مثقلاً بالخوف. كان كل من حوله، كل من كان بمقدورهم سماعه، كانوا فرنسيين، ولم يكن في وسعه أن يوضح لهم جلية الأمر على وجه الدقة هنا، وأنّ هذا لم يكن ابنه، وأن أمّ الصبي ليست هنا الآن، بل ربما كانت في مكان قريب، وانه غفل عن الصبيّ لحظة.

هتف مجدّداً: «لي - يو! أين أنت؟» لم يلمح أثراً للصبي، ولا لمحة ضئيلة من القميص، أو خصلة من شعره الداكن تتوارى وراء شجيرة. وأحسّ من جديد برداً يجتاحه كلّه، كانت موجة جديدة مفاجئة، ارتجف لها: لقد عرف أنّه وحيد. انبثق في أعماقه ما يؤكّد له في خفوت أنّ ليو، حيثما كان، فإنه في خير حال، وأنّه ربما كان في خير حال الآن، وسوف يعثر عليه، ويغدو سعيداً، ويَرَى أمّه، وينسى كلّ ما يتعلّق بمارتن أوستن. لن يحيق به ضرر. ولكنه هو - مارتن أوستن - كان وحيداً: إنه لم يستطع العثور على هذا الطفل، ولن يحيق به إلاّ الضرر من جراء هذا.

عبر مرجة معشبة ممتدّة، لمح أحد حرّاس الحديقة، في زيّ رسمي قاتم الزرقة، يبرز من بين الأشجار التي امتدّت وراءها ملاعب التنس، وبدا في العدو نحوه، وأدهشه أنّه يعدو. وفي منتصف المسافة كفّ عن العدو واكتفى بالهرولة نحو الرجل، الذي توقّف ليسمح لأوستن بالوصول إليه.

- هل تتحدّث الإنجليزية؟

قالها أوستن قبل أن يصل إليه. وقد عرف أنّ ملامحه قد اتّخذت مظهراً مبالغاً فيه: لأنّ الحارس نظر إليه نظرة غريبة، وحوّل رأسه عنه قليلاً، وكأنّما فضل أن يراه من زاوية مختلفة، أو كأنّما كان يستمع إلى نغمة غريبة، وأراد أن يسمعها على نحو أفضل، وعند ركن فمه لاح ما يوحي بأنّه يبتسم.

– آسف.

قالها أوستن، والتقط نَفَساً، وأضاف:

– إنّك تتحدث الانجليزية. أليس كذلك؟

– قليلاً. ولِمَ لا.

قالها الحارس، ثم ابتسم. كان رجلاً بشوشاً، في منتصف العمر، وقد لوّحت الشمس ملامحه، وبدا على شفته العليا شارب صغير يشبه شارب هتلر. وكان يرتدي زيّ الشرطي الفرنسي، مع شريط من شرائط الزينة مجدول على الكتف، وحبل قصير أبيض اللون يمتدّ ليصل زيّه بمسدسه وبقبعة تجمع بين اللونين الأزرق والذهبي. كان رجلاً من النوع الذي يحب الحدائق.

– لقد ضلّ منّي صبي صغير في مكان ما ها هنا.

قالها أوستن بهدوء بالغ، وذلك على الرغم من أنّه كان مايزال لاهث الأنفاس. ووضع راحة يُمناه على وجنته كأنّها مبتلة، وأحسّ ببشرته يكسوها البرود. التفت فجأة، ونظر مجدّداً إلى حافة البركة الاسمنتية، وإلى العشب الذي تقطعه الممرّات المكسوّة بالحصباء، ثم إلى الحائط الساتر، المؤلّف من شجيرات الطقوس، الممتدّ على مسافة أبعد، وتوقع أن يرى ليو على وجه الدقّة في منتصف هذا المشهد الطبيعي المصغر: فبعد أن اجتاحه الخوف، ومضى الوقت سريعاً وسعى لعون الغرباء، ونُظر إليه بتشكّك ودهشه – بعد أن وقعت كلّ هذه الأمور – سيظهر ليو، ويعود كلّ شيء إلى رحاب الهدوء.

ولكن لم يكن هناك أحد، وكانت البوابة المفتوحة خاوية، قد عمّها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الظلام تقريباً، وكان في وسعه أن يرى أنواراً داخلية ضعيفة تلوح من المباني السكنية وراء سور الحديقة، وأن يشاهد أضواء السيّارات الصفراء في شارع فوجيرار. وتذكّر قيامه بالصيد ذات مرّة مع أبيه في إلينوي. كان صبياً صغيراً وقتها، وقد انطلق كلبهما يعدو بعيداً، وعرف أن مَقْدِم الظلام معناه أنّه لن يرى الكلب مرّة أخرى، فقد كانا بعيدين عن الدار، ولن يجد الكلب طريق العودة. وذلك هو ما حدث.

وقف حارس الحديقة أمام أوستن مبتسماً، ومحدّقاً في وجهه على نحو بالغ الغرابة، متفرّساً، وكأنما قصد أن يدلي بشيءٍ مّا: هل أوستن رجل مجنون، أو يتعاطى المخدّرات، أو أنّه يعد لمقلب ضاحك. وأدرك أوستن أنّ الرجل لم يفقه من الأمر شيئاً، وكان في انتظار حدوث شيء يمكنه فهمه.

ولكنه أفسد كلّ شيء الآن: ليو إختفى، اختطف، تعرّض لاعتداء، ضلّ طريقه في مدينة كبيرة، على نحو لا أمل يرجى معه، وأطيح بحريّته التي اكتسبها مجدّداً، وبصفحته الخالية من كلّ شائبة، في لحظة واحدة. سوف يودع السجن، وهو يتعيّن أن يودع هناك. إنّه رجل فظيع، مهمل، قد جلب الأذى والمعاناة إلى حياة أناس أبرياء لم يداخلهم الشك لمّا وضعوا ثقتهم فيه. وما من عقاب يمكن أن يكون أشدّ قسوة من أن يستحقّه.

تطلع مجدّداً إلى شجيرات الطقسوس. أجمّة سامقة خضراء، يبلغ عرضها عدّة أمتار، وقد اختفى داخلها في ظلال متشابكة. وبيقين تام، حدّث نفسه بأنّ ذلك هو الموضع الذي يوجد فيه ليو. وساوره شعور بالارتياح، ارتياح بالكاد يسيطر عليه.

– آسف لإزعاجك. إنّني أعتذر. لقد وقعت في خطأ.

قالها أوستن للحارس، واستدار عائداً، ومضى عدواً نحو أجمّة الطقسوس، عبر المرجة المفتوحة، وممرّات النزهة الحصبائية وأحواض الزهور المعتنى بها، والتي تفتحت براعمها الصفراء

الزاهية، والحديقة رائعة. واندفع موغلاً تحت الفروع الدنيا الخفيضة، حيث كانت الأرض قد غرقت وسويت ورويت واعتُني بها. واندفع إلى الأمام مسرعاً، خافضاً راسه، ثم نادى هاتفاً باسم ليو، ولكنه لم يره، وإن لمح حركة، واهتياجاً غير مميّز للونين الأزرق والرمادي، وسمع ما كان يمكن ان يكون وقع اقدام على الأرض اللينة، ثم سمع صوت جَرْي. كانّ مخلوقاً ضخماً يسرع من وراء حافّة شجيرات الطقسوس، حيث امتدّت مرجة مفتوحة اخرى - ضَحِكٌ رجلٍ وحديث بالفرنسية، وانفاس لاهثة وعدْو، كلّ ذلك في وقت واحد. ضَحِكٌ، ثم مزيد من الحديث وضَحِكٌ من جديد.

تحرّك اوستن إلى حيث راى الحركة المهتاجة للونين الأزرق والرمادي: ملابس شخص لمحها وهو يلوذ بالهرب، فيما حدّث اوستن نفسه. انبعثت رائحة بول ويراز نفاذة وَسْط الجذور الكثيفة والجذوع ذات الجنبات لأشجار الطقسوس. وتناثر الورق والقمامة وسط القذارة. وكان هذا المكان من خارجه قد بدا جميلاً ومغرياً، مكاناً ينال فيه المرء غفوة، او يمارس الجنس.

كان ليو هناك. تماماً في الموضع الذي لمح فيه اوستن اهتياج الملابس في حركة صاحبها وهو يبتعد عن الجذور والعشب. كان ليو عادياً، وقد جلس على التراب الرطب، وملابسه مبعثرة حوله، وقد قلب داخلها إلى الخارج، حيثما انتزعت انتزاعاً والقيت جانباً. تطلّع إلى اوستن، وقد بدت عيناه صغيرتين، لّماحتين، داكنتي اللون، وقدماه امامه مباشرة وقد تعرّضت ساقاه لكدمات وخدوش، وخُمش صدره وذراعاه. وتلطّخت وجنتاه بالتراب، ويداه بين ساقيه، لا تغطيانه، او تحميانه وإنما بدتا متراخيتين فحسب، وكانّما لا غرض منهما. كان لونه شديد البياض، وقد غمره سكون بالغ، وكان شعره مايزال مصفّفاً بعناية. وعلى الرغم من ذلك فإنّه عندما راى اوستن، وادرك انّه هو وليس شخصاً اخر مقبلاً، إنحنى، منثنياً عند خاصرته، وقد بدا عليه الحنق، والتقط انفاسه، مصدراً صوتاً من انفه، وتعثّر، وارتطم، مادّاً ذراعيه عبر اغصان الطقسوس وجذوعها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجذورها في ذلك المكان الصغير، وأطلق صرخة حادّة يائسة، كأنّما كان في مقدوره أن يرى ما هو آت بعد ذلك، ومن سيكون، وقد أرعبه ذلك، وكانت صرخته هي كل ما أمكنه القيام به ليعلن للعالم أنّه يخاف المصير الذي حاق به.

- ٨ -

قدر للأيام التي أعقبت ذلك أن تشهد جدالاً هائلاً. وقد أجرى رجال الشرطة عملية بحث دقيقة وعلنية عن الشخص، أو الأشخاص الذين اعتدوا على الصغير ليو، ولم تبد هناك مؤشّرات تحمل على استنتاج أنّه تمّ التحرّش به جنسياً وكل ما هنالك: أنّ أحدهم قد اجتذبه إلى الشجيرات وأنه، هنالك، عومل معاملة خشنة، وجرى ترويعه ترويعاً سيّئاً. وظهر خبر صغير في الصفحات الأخيرة من صحيفة «اللوموند». ولاحظ أوستن من البداية أنّ رجال الشرطة كلّهم قد استخدموا كلمة «تحرّش» لدى الإشارة إلى الحدث، وكأنّها كلمة دقيقة تعبّر عمّا جرى.

وساد الاعتقاد، بصفة عامة، أن جماعة الهيبيين التي رآها من نافذة جوزفين تضمّ في صفوفها مرتكب الحادث. وقيل إنّهم قد أقاموا في الحديقة وناموا في الأجمات وأشجار الطقسوس والأكواخ الخشبية التجميلية، وأنّ بعضهم كانوا أميركيين أقاموا في فرنسا على امتداد عشرين عاماً، ولكن، عندما جلبهم رجال الشرطة للتعرّف على شخصياتهم، لم يَبْدُ أيّ منهم شبيهاً بالرجل الذي أفزع ليو.

ولبضع ساعات عقب الحادث، ثار شك في صفوف رجال الشرطة حول أنّ أوستن نفسه ربما يكون قد تحرّش بليو، ولم يعثر على الحارس إلاّ لإبعاد الأنظار عن نفسه، بعد أن فرغ من أمر الصبيّ الصغير وهو على يقين من أنّ الطفل لن يتّهمه بالجرم أبداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقد أوضح أوستن بلباقة وصبر أنّه لم يتحرّش بليو، وأنّه ما كان ليقترف شيئاً كهذا أبداً، ولكنه يتفهّم بوضوح أنّه تعين بحث أمره للتمكن من تبرئته - وهو ما لم ينجز قبل منتصف الليل، عندما دخلت جوزفين مخفر الشرطة، وذكرت أن ليو أبلغها بأنّ أوستن ليس الرجل الذي أفزعه ونزع عنه ثيابه، وأنّ شخصاً آخر هو الذي اقترف ذلك، رجلاً يتحدّث الفرنسية، ويرتدي ملابس زرقاء، وربما رمادية، وله شعر مسترسل ولحية.

وعندما روت هذه القصّة، وسمح لأوستن بمغادرة غرفة مخفر الشرطة العتيقة، المجرّدة من النوافذ، التي طلب منه البقاء فيها إلى أن يمكن حسم الأمور على وجه اليقين، سار إلى جوار جوزفين خارجين إلى الشارع المضاء بنور أصفر منسل عبر نوافذ المخفر العالية المحاطة بالأسلاك المتصالبة. كان عدد من رجال الشرطة الشبّان، الذين يرتدون سترات مميّزة، ويحملون مسدّسات آلية صغيرة في حوامل مدلاة من الكتف، يحرسون الشارع، وراحو يرمقون جوزفين وأوستن في هدوء، وهما يتوقّفان عند حافة الرصيف، ليتبادلا كلمة وداع.

قال أوستن:

- إنّني أتحمّل اللوم كلية على هذا الأمر. وليس في وسعي الإعراب لك عن مقدار أسفي، وليست هناك، في ما أعتقد، كلمات قادرة على أداء هذه المهمّة.

- اللوم يقع عليك.

قالتها جوزفين، وحدّقت في وجهه بإمعان. وبعد لحظة أضافت:

- إنّها ليست لعبة. أتعرف هذا؟ ربّما كانت لعبة بالنسبة لك.

قال أوستن، وهو يقف في هواء الليل البارد، على مرأى من رجال الشرطة الشبّان كلهم، قال بصوت مثقل بالقنوط:

- لا. إنّها ليست كذلك حقاً. أظن أنّه كانت لديّ خطط كثيرة.

- خطط للقيام بماذا؟

قالتها جوزفين، وكانت ترتدي التنورة السوداء الكريب، التي كانت ترتديها يوم لقائه بها قبل أسبوع. بدت، في نظره، فاتنة مرّة أخرى. وأضافت:

– ليس بالنسبة لي! ليست لديك خطط لي، فلست أريدك. ولم أعد أريد أي رجل.

هزّت رأسها، وعقدت ذراعيها بإحكام، وعيناها الكحيلتان تتوهّجان في الليل. كانت غاضبة كأشد ما يكون الغضب. وحدّث نفسه بأنّه من المحتمل أنّها غاضبة على نفسها. قالت، وهي تبصق عرضاً لدى قولها هذا:

– أنت أحمق، أكرهك. إنك لا تعرف أيّ شيء، ولست تعرف من أنت.

نظرت إليه بمرارة، وقالت:

– من أنت؟ من تظنّ نفسك؟ إنّك لا شيء.

قال أوستن:

– إنّني أتفهّم الوضع. آسف. آسف على هذا الأمر كلّه. سأحرص على ألاّ تضطري إلى رؤيتي.

إبتسمت جوزفين ابتسامة هازئة منه، ابتسامة قاسية وافية بالغرض منها.

– لا أبالي.

قالتها، ورفعت كتفها بالطريقة التي لم يحبها أوستن، الطريقة التي تلجأ إليها الفرنسيات عندما يرغبن في الإدلاء كحقيقة بشيء ربما لا يكون كذلك. أضافت:

– لست أبالي بما يحدث لك. فأنت ميت، وأنا لا أرى لك وجوداً.

استدارت، وشرعت في السير، مبتعدة فوق الرصيف، على امتداد الجانب المجاور لمخفر الشرطة وأمام رجال الشرطة الشبّان، الذين نظروا إليها بلامبالاة. وعاودوا النظر إلى أوستن، وهو يقف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في الضوء وحيداً، حيث أحسّ أنّه لا بدّ من بقائه حتى تغيب عن ناظريه. قال أحد رجال الشرطة شيئاً لزميله المجاور له، فأطلق ذلك الرجل صفيراً وحيداً طويلاً إلى رحاب الليل، ثم استدارا، وواجها الجانب الآخر.

في الأيام التي أعقبت ذلك، استبدّ الخوف بأوستن، استبداداً أوشك على قهره وحرمانه من النوم في شقّته الصغيرة البذيئة في شارع بونابرت كان خوفه أن بربارة ستموت سريعاً. كان شعوراً أعقبه إحساس في اليوم التالي أنّها قد ماتت، ثم إحساسٌ أنّ شيئاً مهماً في حياته لا يمكن إدراكه بغير موتها قد ضاع، وانتهى، لا بما أقدم عليه فحسب، وإنّما بحكم القدر كذلك. وراح يتساءل مستيقظاً في منتصف الليل: ترى ما عساه يكون هذا الشيء؟ لم يكن هذا الشيء بربارة نفسها. فهي على قيد الحياة، وعلى سطح الرض، ويمكن أن يعود إليها، إذا أراد أن يحاول، وإذا ما حاولت هي ذلك. ولكنه فقد شيئاً ما، وأيّاً مّا كان هذا الشيء فإنّ بربارة تمثّله، وإذا ما كان باستطاعته تحديد هذا الشيء، فقد شعر بأنّه من الممكن أن يبدأ في ضمّ الأشياء معاً، وأن يرى، بمزيد من الوضوح، بل ويستطيع محادثتها من جديد، وأنه، بمعنى من المعاني، قادر أن يعيد تأهيل نفسه.

ورغم ذلك، فإن عدم معرفة ذلك الشيء كان معناه أنّه خارج نطاق السيطرة. لعلّ ذلك الشيء أن يَحْدُث له ما هو أسوأ. وشرع يفكّر في حياته، في تلك الأيام السالفة، مركزاً بصورة تامّة على تبين وجه الخطأ فيها، وفي مشكلته، وفشله، وبصفة خاصة فشله كزوج، وتعاسته، ودماره الذي أراد أن يحول دونه. وقد أدرك الآن على نحو أكثر إيلاماً، أن توجّهه بكامله، أن كل ما قدر له القيام به أو افتراضه أو التفكير فيه قد استمدّ توازنه من بربارة، وأنّ كلّ شيء يعلّق الآمال الآن على القيام به يستمدّ توازنه من الفكرة القائلة بأنّه سيعود إلى بربارة بالفعل. وكلّ شيء بين هذه الأقواس التي يستحيل إزالتها.

ووراء جوزفين، بالطبع، لم يكن هناك شيء، لا نسيجاً أو أحجية،

أو أسراراً، لا شيء يشعر بالفضول حياله الآن. كانت قد بدت امرأة فاتنة، ليست موضوعاً عظيماً للنشاط الجنسي، ليست مصدراً لِلُّماحية، وإنما قوّة عشقها لوقت قصير مع توقّع قدرتها على حبّه، وتذكر تقبيلها في السيارة، محياها اللدن، ثم تذكر اللحظة العظيمة الرائعة التي تميّزت بشعور متوهّج، البهجة الكبرى. صوتها يقول في رقّة: لا، لا، لا، لا، لا». كان ذلك هو ما لم يستطع برنار أبداً التغلّب على فقدانه، وما دفعه إلى كرهها بقوّة تكفي لإذلالها.

وهو من جانبه أعجب بها، وقد رجع ذلك في الجانب الأعظم منه إلى طريقة معاملتها له، معاملة متوازنةً لبقة. كانت تحسّ شعوراً أكبر بالمسؤولية يتجاوز ما أحسّه هو. كان لديها إدراك أعظم لأهمية الحياة، وثقلها ودوامها. أمّا هو، فالأمر كلّه بدا أقلّ أهمية، وأقلّ دراميّةً، وما كان قطّ أن يسمو إلى إحساسها بالحياة، وهو إحساس أوروبي. وأحسّ بالفعل نَفْسَه شيئاً معطى، شيئاً ثابتاً. وكان يعرف نفسه، وليس الأمر على الاطلاق كما قالت جوزفين. لقد كانت هي نفسها شيئاً ثابتاً، على الرغم من أنّهما مختلفان كأشدّ ما يكون الاختلاف، وما كان في الوسع أن يسعدا معاً سعادة بالغة.

تساءل مجدّداً في لحظاته الحالمة، بعد أن تبدّد خوفه من موت بربارة، وقبل أن يمضي للرقّاد، تساءل: ما هو الممكن بين البشر؟ ما هو الممكن انطلاقاً من القيمة الحقيقة؟ كيف يمكنك أن تنظّم الحياة، وأن تلحق ضرراً يسيراً وتظل، مع ذلك، مرتبطاً بالآخرين؟ واستند إلى ما قالته بربارة عندما رآها لآخر مرّة وكانت غاضبةً منه: هل تغير بشكل من الأشكال، وهل غيّر بعض الارتباطات المهمّة التي ضمنت سعادته، وأصبح منفصلاً، ولا سبيل للوصول إليه. هل يمكن أن تغدو على ذلك النحو؟ وهل جوهر الأمر شيء تسيطر عليه بنفسك أم هو متعلّق بشخصيتك أم بتغيرٍ لم تكن إلاّ ضحية له؟

كان ذلك موضوعاً أحسّ أنّه سيتأمّله عبر ليال عديدة، عديدة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مكتبة بغداد

ما الذي انتزع مارتن أوستن من شيكاغو، من عمله الناجح في تسويق الورق الفاخر هناك، ومن بين أحضان زوجته الجميلة والمحبوبة، برباره، ومن عالمه الواضح والمحدّد والدقيق ليضلّ طريقه في باريس، عبر شوارع يحاول عبثاً أن يعرفها، وصولاً إلى امرأة لم يقدر له أبداً أن يعرفها بصورة حقيقية، وليعنى بطفل لم يره من قبل، وليحاول دخول حياة لن يقدّر لها أبداً أن تبدأ أو حتى أن تتكامل مقوماتها؟ هذا الحشد من المعاني يفجّره السؤال الذي ستوجّهه له جوزفين، المرأة الباريسية: «من أنت»؟.

هذا الكتاب هو الثاني في المكتبة العربية، بعد رواية «حياة وحشية»، الصادرة عن دار الآداب للمؤلّف نفسه، الذي يتولى تعريف القارئ العربي بتيار الواقعية القذرة في الأدب الأميركي، هذا التيّار الذي يصف أمريكا الأخرى، أمريكا الريف الوحشي، أمريكا الضواحي المجرّدة من الروح، أمريكا الضائعين والمشرّدين والذين غاب عنهم الحلم، لأنّهم يعيشون لا في عالم كابوسي، وإنّما في عالم يفتقر لأدنى مقوّمات الحلم.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣

ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت

https://telegram.me/maktabatbaghdad